مؤسس الدولة العثمانية

« عثمان أرطغرل »

مؤسس الدولة العثمانية

عثمان أرطغرل

يوسُف أبو الحجاج الأقصري

تقديـــم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

وبعد

هذا إصدار عن سلطان السلاطين الملقب بأبو الملوك السلطان الغازي فخر الدين قرة «عثمان خان الأول» بن أرطغرل بن سليمان شاه القايوى التركماني مؤسس الإمبراطورية العثمانية الكبرى وهو زعيم عشيرة «قايى» التركية، وعامل سلاجقة الروم على أحدى إمارات الثغور الأناضولية، ومؤسس السلالة العثمانية التي حكمت البلقان والأناضول والشرق العربي وشمال أفريقيا طيلة 600 عام إلى أن انقضى أجلها مع إعلان قيام الجمهورية التركية في العصر الحديث بالتحديد عام 1922م.

* ولد «عثمان الأول» سلطان السلاطين يوم 8 صفر عام 656هـ الموافق فيه 13 شباط «فبراير» 1258م، وهو اليوم ذاته الذي اجتاحت فيه جحافل المغول مدينة بغداد وأمعنت تقتلا بأهلها ودكت معالم العمران والحضارة فيها..

* لا يتوافر الكثير من المصادر التاريخية الموثوق بها عن حياته الأولى إلا

أن القلة المتوافرة أغلبها يشير إلى ولادته في مدينة «سكود» التي اتخذها والده «أرطغرل» عاصمة لأماراته، وسبب قلة المعلومات المتوافرة حول هذه المرحلة من حياته يرجع إلى أن أقدم مصدر معروف وموثوق به تاريخياً كتب عنه بعد حوالي مائة سنة من وفاته، وأشهر المصادر التاريخية الموثوق بها والتي كتبت عنه كتاب «دستان وتواريخ ملوك آل عثمان» تأليف حكيم البلاد العثماني في زمن السلطان بايزيد الأول وأسمه «أحمد بن خضر تاج الدين» الشهير بلقب «أحمدي» «1334 ـ 1413م» وأيضا كتاب «بهجة التواريخ» تأليف المؤرخ «شكر الله أغا» «ت 1464م»، وأيضا كتاب «تاريخ آل عثمان» للمؤرخ درويش أحمد عاشق باشا زادة «1400م ـ 1484م»، وبالرغم من ذلك يؤكد المحققون أن النسخ الموجودة من تلك الكتب والتي في أيدينا اليوم ليست هي نفسها النسخ الأصلية، بل نسخ عنها وأعيدت كتابتها مرارا بعد سنوات لذا يحتمل أن تكون بعض المعلومات قد سقطت منها وهناك رأي أخر معارض يؤكد أنها نسخت كما هي، وبالتالي فلا فرق بينها وبين النص الأصلي.

* ويشير فريق من المؤرخين إلى أن المصادر العثمانية والأوروبية والبيزنطية لا يمكن الاعتماد عليها كثيرا حول أصول «عثمان الأول» لأن السجلات العثمانية الأصلية المكتوبة والتي لا تزال باقية تعود كلها للفترة اللاحقة على فتح القسطنطينية كما أن البيزنطيين لا يشيرون في كتاباتهم إلى أصل العثمانيين، أما المؤرخون الأوروبيون الأوائل فلم يهتموا بهذا الشعب التركي وأصوله إلا منذ أن بدا يشكل خطرا على أوروبا أي بعد وفاة عثمان أرطغرل بحوالي 100

سنة أو أكثر..

* يذكر الأمام أحمد بن سليمان بن كمال باشا الحنفي «ت 940 هـ - 1534م» مؤلف كتاب «تاريخ آل عثمان» الآتي: ـ

كان «عثمان الأول» أصغر أولاد أرطغرل سنا وأن ولادته كانت ببلدة «سكود» التي ولى عليها والده إلا إنه قال بأن ولادته كانت سنة 652هـ وقد حدثت في ليلة «بدراء» أي ظهر فيها البدر، كما ذكر أن والدته هي «حليمة خاتون» على أن البعض يشير إلى أنها جدته وليست والدته تعلم عثمان أرطغرل المصارعة والمبارزة بالسيف في صغره، كما تعلم ركوب الخيل والرمي بالنبال والصيد بالعقبان فكان أمهر أخوته في هذا المجال كما تعلم مبادئ الدين الإسلامي، وتقرب من مشايخ الصوفية وتأثر بهم وفي مقدمتهم معلمه الشيخ «إده بالى» فانعكس ذلك على شخصيته وأسلوب حياته.

* تولى الحكم عام 687هـ بعد وفاة أبيه «أرطغرل» بتأييد من الأمير علاء الدين السلجوقي حيث قام الأمير السلجوقي بمنحه كل الأراضي التي يقوم بفتحها وسمح له بضرب العملة.

* لقد بدأ «عثمان أرطغرل» مؤسس الإمبراطورية العثمانية في توسيع إماراته فتمكن من أن يضم إليه عام 688هـ قلعة قرة حصا «القلعة السوداء» فسر الملك علاء الدين بهذا ومنحه لقب «بيك» وسمح له بأن تكون الأراضي التي يضمها حكما له وسمح له بضرب العملة وأن يذكر أسمه في خطبة الجمعة.

* بوفاة الأمير علاء الدين السلجوقي ومقتل ابنه «غياث الدين» أصبح عثمان أرطغرل السلطان الغازي أعلى سلطة وبدأ بتوسع أراضيه، واتخذ مدينة «بني شهر» أي المدينة الجديدة قاعدة له ولقب نفسه باديشاه آل عثمان واتخذ له رأية هي علم تركيا اليوم، ودعا أمراء الروم في أسيا الصغرى إلى الإسلام واستطاع فتح «بورصة» عام 717هـ، وكانت تعد من الحصون الرومية الهامة في آسيا الصغرى.

* رغم شيوع لقب «السلطان» أو «البديشاه» والتصاقه بعثمان أرطغرل سلطان السلاطين إلا إنه لم يكن سلطانا فعلياً في زمانه وإنما لقب بذلك لاحقاً لاعتباره مؤسس السلالة السلاطين العثمانيين.

* اشتهر «عثمان أرطغرل» ببساطة العيش والملبس لتأثره بمعتقدات الصوفية، وكان بعيدا عن الترف والبذخ فحافظ على نمط حياته كشيخ لقبيلة «قايي»، وحافظ على التقاليد التركية القديمة التي كانت تحكم العلاقة ما بين الشيخ وأفراد العشيرة.

* مع مختصر وموجز قصة عثمان أرطغرل تدور سطور هذا الإصدار الذي أتمنى أن يكون إضافة جديدة للمكتبة العربية.

والله الموفق والمستعان

المؤلف

يوسُف أبو الحجاج الأقصري

الفصل الأول

الأمير الغازي
«أرطغرل بك»
والد عثمان أرطغرل

بطاقة تعارف لوالده

الاسم: أرطغرل بن سليمان شاه

الشهرة: أرطغرل غازي بن سليمان شاه

المهنة: زعيم قبيلة في الفترة من 1230 ـ 1281م

الميلاد: 1191م

مكان الميلاد: أخلاط ـ الأناضول ـ دولة السلاجقة الروم

الوفاة: 1281م عن عمر يزيد على 90 عاماً

مكان الوفاة: سكود ـ بيله جك ـ تركيا

الديانة: مسلم سني

الزوجة: حليمة خاتون

الأبناء: عثمان / غندوز الب / سارو باطو «صاووجي بك»

الأب: سليمان شاه

الأم: هيماه خاتون

موجز سيرة
«الأمير الغازي أرطغرل»

الأمير الغازي أرطغرل بك بن سليمان شاه القايوي التركماني هو والد «عثمان أرطغرل» مؤسس الدولة العثمانية.

* من المعلومات المؤكدة أن «أرطغرل» والد «عثمان الأول» مؤسس الدولة العثمانية ينحدر من القبيلة الأولى من قبائل الأوغوز البالغة 24 قبيلة، ومن عائلة بكوات عشيرة «قايي» التي تعد سلالة خاقانية، ومن المعلومات المؤكدة أيضا أن أباه وأجداده كانوا هم بكوات «أمراء» هذه العشيرة، وهم مسلمون ومذهبهم هو الحنفي فكانوا جميعا من أهل السنة والجماعة.

* على الرغم من ثبوت وجود «أرطغرل» تاريخياً عن طريق العملات المسكوكة من قبل ابنه «عثمان الأول» مؤسس الدولة العثمانية والتي تحدد اسم والدة «أرطغرل» إلا إنه لا يوجد أي شيء آخر معروف على وجه اليقين بخصوص حياته أو أنشطته..

* ووفقا للتراث العثماني، فإن أرطغرل كان ابن سليمان شاه التركماني «وشاه تعني ملك» ولكن إذا جاءت بعد اسم فهي تعني السيد، وكان

«أرطغرل» زعيم قبيلة «قايي» من أتراك الأغوز الذين نزحوا من شرق إيران إلى الأناضول هروبا من الغزو المغولي.

* ووفقا لرواية التراث العثماني، فإن أرطغرل وأتباعه دخلوا في خدمة سلاجقة الروم بعد وفاة والده، وكوفئ بالسيادة على بلدة سكود «سوغوت» الواقعة على الحدود مع الإمبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت.

* وغالبا ما يشار إلى أرطغرل وإلى ابنه وإلى نسلهما من سلاطين الدولة العثمانية باسم غازي أي مقاتل وبطل ومجاهد في سبيل رفعة كلمة الإسلام فيقال «أرطغرل غازي» و «عثمان غازي» وهكذا...

* لا توجد أي مصادر إسلامية أو بيزنطية معاصرة «لأرطغرل» تتحدث عنه، فعلى سبيل المثال لم يأت ذكره عند المؤرخ البيزنطي «ماشيميريس» المولود عام 1242م والمتوفي عام 1310م ولا في المصادر المتأخرة بعد ذلك مثل «ابن بطوطة» «1304م ـ 1377م» أو المؤرخ البيزنطي «يوحنا السادس قانتا قوزن» «مولود 1354» ـ متوفي «1347» ولكن هناك تفاصيل مكتوبة عن حياة «أرطغرل» في السجلات العثمانية الأولى التي ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي، ولكنها تبدو في نظر بعض المؤرخين أسطورية إلى حد كبير..

* لقد أحرق تيمور لنك كل الوثائق التركية عند إغارته على الأناضول سنة 804هـ الموافقة لسنة 1402م، ولهذا فالوثائق التاريخية الرسمية المتعلقة بالفترة من نشأة الدولة العثمانية وحتى إغارة تيمور لنك قليلة جداً..

* غدا ذكر «أرطغرل» على وجه اليقين في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي في خطاب من السلطان «بايزيد الأول» إلى تيمور لنك.

* ثم اكتشفت مصادر أقدم من ذلك إذ اكتشفت عملة معدنية مسكوكة من عصر «عثمان بن أرطغرل» المتوفي عام 1324م، نقش عليها اسم والده «أرطغرل» واسم جده «غندوز الب» وهذه العملة موجودة حاليا في متحف الآثار بأسطنبول.. مكتوب على وجه العملة «ضرب ـ عثمان بن أرطغرل بن كدز الب» وهو ما أدى إلى وجود خلاف بين المؤرخين إذا كان اسم والده «سليمان شاه» أم «غندوز الب» بحسب مصادر أخرى.

* أما أقدم مصدر موجود حتى الآن وأشار إلى «أرطغرل» فهو ما كان مكتوبا في سجل ساحة الأراضي الذي ذكرت فيه أراضي بلدة «سكود» التركية وأعطيت «لنفس أرطغرل»..

* كان أرطغرل بن سليمان شاه قائدا لإحدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربية إلى بلاد آسيا الصغرى «الأناضول» وكان عائدا بعد موت أبيه الذي غرق عند اجتياز نهر الفرات قرب قلعة «جابر» على بعد حوالي 250كم جنوبي غربي مدينة «ماردين» التركية.

* في الطريق شاهد «أرطغرل» جيشين مشتبكين فوقف على مرتفع من الأرض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى الرحُل من القبائل الحربية، ولما آنس الضعف في أحد الجيشين وتحقق من انكساره وخذلانه إن لم يمد إليه يد

المساعدة دبت فيه النخوة الحربية، ونزل هو وفرسانه مسرعين لنجدة أضعف الجيشين، وهاجم الثاني بقوة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب في قلوب الذين كادوا يفوزون بالنصر، لولا هذا المدد الفجائي، وأعفل فيهم السيف والرمح، ضرباً ووخزا حتى هزمهم شر هزيمة وكان ذلك في أواخر القرن السابع الهجري.

* بعد تمام النصر علم «أرطغرل» بأن الله قيده لنجدة الأمير «علاء الدين كيقباد الأول 616هـ ـ 634هـ » الموافق «1219 ـ 1237م» سلطان قونية أحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة آل سلجوق بموت السلطان «ملكشاة» عام 1092»؛ لأن هؤلاء الجنود الذين وقف «أرطغرل» بجانبهم كانوا جنود «علاء الدين».

* كافأه الأمير «علاء الدين كيقباد» على مساعدته له وجنوده وذلك باقتطاع عدة أقاليم ومده له، وصار لا يعتمد في حروبه ضد مجاوريه إلا على أرطغرل ورجاله، وكان عقب كل انتصار لـ «أرطغرل» يقطعه أراضي جديدة ويمنحه أموالا جزيلة ثم لقب قبيلته بـ «مقدمة السلطان» نظراً لوجودها دائما في مقدمة الجيوش وتمام النصر على يديه.

* ولما توفي «أرطغرل» سنة «687هـ» الموافق «1288م» عين الأمير علاء الدين مكانه أقوى أولاده وأكثرهم خبرة بفنون القتال وهو «عثمان بن أرطغرل» الذي استطاع تأسيس الدولة العلية العثمانية.

* توفي «أرطغرل» وعمره أكثر من 90 عاماً، ويوجد له قبر حاليا في مدينة «سكود» بناه له ابنه السلطان «عثمان غازي بن أرطغرل» ومع ذلك تختلف بعض الروايات في تحديد تاريخ وفاة أرطغرل غازي والمشهور أن أرطغرل غازي توفي عام 1281م، وهناك مصادر تقول 1282م في مدينة «سكود» بعد سنوات قليلة من تسليم قيادة قبيلة «قابي» لابنه «عثمان الأول».

* بنيت مقبرة «أرطغرل» لأول مرة في عهد ابنه «عثمان الأول» كقبر مفتوح ثم تحول القبر لاحقا إلى ضريح «بناء فوق القبر» من قبل السلطان محمد الأول ثم أعاد السلطان مصطفى الثالث بناء الضريح عام 1757م وغير في البناء الأصلي.

* في عام 1886م تم ترميم المقبرة من قبل السلطان عبد الحميد الثاني، وتم إضافة نافورة مياه إليه.

* جاء تصميم ضريح «أرطغرل» على شكل سداسي الأضلاع تغطيه قبة ويتم الوصول إلى قبر أرطغرل داخلها من خلال مدخل مستطيل الشكل، على جانبيه نافذتان، وبنيت جدران الضريح من صف من الحجارة يعلوه صفين من الطوب، وتم فتح نوافذ مستطيلة على الجدران الغربية والجنوبية والشرقية داخل الضريح.

* ترك أرطغرل ثلاثة أبناء ذكور هم:

1 ـ كندز بك

2 ـ سارو باطو صاووجي بك

3 ـ عثمان وكان أصغر الأبناء وأكثرهم خبرة عسكرية، وهو الذي كان يقود الجيوش في عهد والده، وهو الذي تولى القيادة في أيام والده الأخيرة، وهو المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية العلية...

* أوصى «أرطغرل» ابنه «عثمان» بوصية طويلة قيمة يحثه فيها على ضرورة الاهتمام بأولياء الله من العلماء وخاصة شيخه «أده بالي»، وهناك جزء صغير من الوصية مكتوب على قبر أرطغرل وهو الجزء الذي يحثه فيه على عدم عصيان شيخه يقول فيها:

«انظر يا بني، يمكن أن تؤذيني، ولكن لا تؤذ الشيخ «أده بالي»، فهو النور لعشيرتنا، ولا يخطئ ميزانه قدر درهم، كن ضدي، ولا تكن ضده، فإنك لو كنت ضدي سأحزن وأتأذى، أما لو كنت ضده، فإن عينيَّ لن تنظر إليك، وإن نظرتا فلن ترياك، أن كلماتي ليست من أجل الشيخ «أده بالي» بل هي من أجلك أنت، ولتعتبر مقالتي هذه وصية لك».

الفصل الثاني

سيرة عثمان أرطغرل

بطاقة تعارف
سلطان السلاطين
عثمان أرطغرل

الاسم: عثمان بن أرطغرل

تاريخ الميلاد: 1258 – 1326 م

مكان الميلاد: تركيا

تاريخ الوفاة: 1326م

الجنسية: تركي

هو عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه «1258م ـ 1326م» مؤسس الدولة العثمانية وأول سلاطينها وإليه تنسب شهدت سنة مولده غزو المغول بقيادة هولاكو لبغداد وسقوط الخلافة العباسية.

هو بطل مغوار، على رأس مائة أسرة وأربعمائة فارس تركماني، أسس إمبراطورية حكمت نصف العالم لأكثر من ستة قرون، وأجبرت أمريكا على دفع الجزية.

لم يضع أسس بناء إمبراطورية حباً بالسلطة والجاه والجبروت، وإنما حباً بالإسلام. لقد كان يؤمن إيماناً عميقاً بأن مهمته الوحيدة في الحياة هي إعلاء كلمة الله. أوصى ابنه وهو على فراش الموت، يا بني، إياك أن تشتغل بشئ لم يأمر به الله رب العالمين، وعليك نشر الإسلام وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها.

اتصف بالشجاعة الفائقة والحكمة العميقة والإخلاص الشديد للإسلام والصبر على الشدائد والملمات والعدل في الحكم والوفاء والإيمان العميق الذي لا يتزحزح.

ذلكم هو المجاهد التركماني البطل الغازي عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه بن قيا ألب مؤسس الإمبراطورية العثمانية.

فقبل أن تبحر مع هذا المجاهد لترتوي من معين حكمته وإيمانه، وترافقه لتسمع صهيل خيول فرسانه وهتاف حناجرهم التي تشق عنان سماء المعارك

الهادية مزمجرين بصوت هادر «الله أكبر» ليحولوا سوح الوغى إلى أعراس للنصر، وليدب الرعب في قلوب أعدائهم. فقبل ذلك أيضاً لابد أن نتعرف على الدوحة التي ينحدر منه هذا العملاق الغازي الذي مازالت نتائج ما أفرزتها إمبراطوريته لم تحسم لحد هذا اليوم.

كان «سليمان شاه بن قيا ألب» جد عثمان رئيس وزعيم العشيرة، الذي قرر الهجرة في عام 617 للهجرة الموافق لعام 1220 للميلاد مع قبيلته وفيها ألف فارس من موطنه إلى بلاد الأناضول، فاستقر في مدينة أخلاط التي تقع شرق تركيا الحالية. ولما هدأت موجة المد المغولي رغب في الرجوع إلى موطنه الأول عبر ديار بكر نحو الرقة. حاول عبور نهر الفرات فهوى فيه وغرق عام 628 للهجرة الموافق لعام 1230 للميلاد. فدفن هناك قرب قلعة جعبر.

خلف سليمان شاه أربع أبناء، اختلفوا بعد وفاة أبيهم في الطريق التي يجب أن يسلكوها للعودة إلى موطنهم. الابن البكر «سنكور تكن» الذي تولى زعامة القبيلة خلفاً لأبيه، فقد حقق رغبة أبيه ورجع مع أخيه «كون طغري» إلى موطنهم الأول. وأما الأخوان الآخران وهما «أرطغرل» و «دندان» فقد عادا أدراجهما. وكان «أرطغرل» زعيم المجموعة المتبقية من القبيلة والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس.

وبعد وفاة أرطغرل عام 687 للهجرة، خلفه بطلنا المجاهد عثمان الذي

سار على سياسة أبيه في قضم أرض الروم، وإلحاقه بدولته الناشئة الفتية. وعلى يده تأسست الدولة العثمانية سنة 699 للهجرة الموافق لعام 1288 للميلاد.

يذكر بعض المؤرخين إلى أن عثمان هو أول من أسلم من قبيلة قاتي التركمانية، وهذا الزعم غير صحيح؛ لأن القبيلة كانت بالأصل مسلمة قبل أن ترحل من موطنها الأصلي مع زعيمها. إذ المعروف أن قبيلة قاتي تركمانية، وكلمة تركمان تطلق على الترك الذين اعتنقوا الإسلام فسموا «ترك إيمان» والدليل الآخر هو اسم زعيمها سليمان.

لقد كان لنجدة قبيلته لجيش الأمير علاء الدين السلجوقي المسلم وإحرازهم النصر على الروم الأثر الكبير في تكوين شخصية هذا المجاهد فاعتقد بأن مهمة كبيرة قد ألقيت على عاتقه، وينبغي تحقيقها مهما غلت التضحيات إلى حد أن أصبح الجهاد محور حياته وتفكيره. دأب على تنشئة أولاده وتدريب جيشه على الإيمان العميق للجهاد في سبيل الله ورفع راية الإسلام.

أعماله: ـ

لقد بدأ عثمان يوسع إمارته فاستطاع أن يضم إليه عام 688 قلعة قرة حصار، وفي عام 699 أغارت المغول على إمارة علاء الدين السلجوقي ففر من وجههم والتجأ إلى إمبراطورية بيزنطا وتوفي هناك في العام نفسه، وتولى الإمارة من بعده ابنه غيات الدين فقتله المغول ففتحت الأبواب وأزيلت العقبات من أمام عثمان أرطغرل؛ ليتوسع رويداً رويداً على حساب الروم، واتخذ مدينة بني

شهر قاعدة له ولقب نفسه باديشاه آل عثمان، واتخذ راية ودعا أمراء الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام فإن أبوا فعليهم دفع الجزية، فأن رفضوا فالحرب هي التي تحكم بينه وبينهم فخشوا على أملاكهم منه، فاستعان الروم بالمغول عليه، وطلبوا منهم أن ينجدوهم ضده، غير أن عثمان أرطغرل كان قد جهز جيشاً بإمرة ابنه أورخان وسيره لقتال المغول فشتت شملهم، وكانت هذه المعركة مشابهة لمعركة عين جالوت العظيمة.

ثم تواصلت انتصارات المجاهد عثمان أرطغرل بعد دحر المغول واعتناق قسم كبير منهم الإسلام. اتجه جيشه نحو مدينة بورصة التي كانت مقر الحصون المنيعة والمهمة في آسيا الصغرى، فاستطاع أن يدخلها عام 717 للهجرة، 1317 للميلاد، وأمن أهلها وأحسن إليهم، فدفعوا له ثلاثين ألفاً من عملتهم الذهبية وأسلم حاكمها «أفرينوس» فمنحه عثمان لقب «بيك» وأصبح من قادة العثمانيين البارزين.

توفي الغازي عثمان عام 726 للهجرة الموافق لعام الميلاد 1326، وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده.

أهم الصفات القيادية في عثمان أرطغرل

يمكن إنجاز أهم الصفات القيادية في عثمان والتي جعلته ينجح في تأسيس دولة كبري ظلت تحمل اسمه عدة قرون.

1 - الشجاعة:.

لشجاعته كان مضرب الأمثال. جمع له الـروم عام 700 للهجرة و 1300 للميلاد حلفاً صليبياً في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستلة البيزنطية؛ لمحاربته والقضاء عليه، ولكن عثمان لم يمهلهم فخاض الحروب ضد هذا الحلف بنفسه متقدماً فرسانه الميامين ليشتت شملهم وينتصر عليهم.

2 - الحكمة:.

لقد رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد أعدائه، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين، وسمح له بسك العملة باسمه ، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحته.

3 - الإخلاص:.

عندما لمست الإمارات الإسلامية المجاورة لأمارة بني عثمان، إخلاصه

للدين الإسلامي الحنيف تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية ناشئة تقف سداً منيعاً أمام الدول المعادية للإسلام والمسلمين.

4 - الصبر:-

لقد اتصف المجاهد الغازي عثمان أرطغرل بالصبر، وتجلت هذه الصفة فيه عندما شرع في فتح الحصون المنيعة والبلدان القوية، ففتح في سنة 707 للهجرة، 1307 للميلاد حصن كته، وحصن لفكة وحصن أق حصار وحصن قوج حصار. وفي سنة 712 للهجرة، 1312 للميلاد فتح حصن كبوة وحصن يكيجة طرا قلوا وحصن تكرر بيكاري وغيرها وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بورصة في عام 717 للهجرة، 1317 للميلاد، وذلك بعد حصار صعب شديد دام عدة سنوات، كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته.

5 - الجاذبية الإيمانية:-

تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان أرطغرل، ذات الجاذبية الإيمانية ومنهجه القويم الذي سار عليه حتى دخل البيزنطيون في دين الله أفواجاً حتى امتلأت صفوف العثمانيين بهم.

6 - العدل:-

اشتهر المجاهد عثمان أرطغرل بالعدل وقبل وفاة والده أرطغرل عهد إلى عثمان بولاية القضاء في مدينة «قره جه حصار» بعد فتحها عام 784 للهجرة، 1382 للميلاد، وتروي المراجع العثمانية التاريخية أن عثمان حكم لبيزنطي

نصراني ضد مسلم تركي فاستغرب البيزنطي وسأل هذا الرجل عثمان: كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك؟ فأجابه عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك والله الذي نعبده، يقول لنا:

«أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» فاهتدى الرجل وقومه إلى الإسلام.

7 - الوفاء:-

كان شديد الوفاء بالعهود فعندما اشترط أمير قلعة أولو باد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده.

8 - التجرد:-

لم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كان فرصة تبليغ الدعوة إلى الله ونشر دينه، «فقد كان متديناً للغاية وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان يتمتع بفكر سياسي واسع متين، ولم يؤسس عثمان أرطغرل دولته حبا في السلطة وإنما حباً في الإسلام» «لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف السامي.

كان عثمان أرطغرل شخصية متزنة مؤثرة خلابة تأخذ بألباب مستمعيه،لم

تطغي قوتها على عدالتها، ولم تفقدها القوة والسلطة توازنها. لم يتزحزح إيمانها قيد أنملة، ولم تتجاوز سلطانها على رأفتها ولا غناها على تواضعها. أكرم الله عثماناً بتأييده ونصره ومكنه الأخذ بالأسباب والغلبة فجعل له القدرة على التصرف والهيبة والوقار وطاعة الرعية، وكانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب النصر والتوفيق.

عثمان أرطغرل المجاهد العظيم

لقد كان حياة هذا المجاهد التركماني العظيم جهاداً ودعوة في سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون به ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة ولعل أبرز ما حفظه لنا التاريخ من إيمان هذا البطل المغوار المؤمن، والتزامه الشديد بالإسلام ونشره، وصيته إلى ابنه أورخان وهو على فراش الموت، الوصية التي أصبحت منهاج عمل ومنار لجميع سلاطين بني عثمان الذين تعاقبوا على السلطنة طيلة أكثر من ستة قرون.

يقول المجاهد عثمان أرطغرل في وصيته لابنه أورخان، كأنها وصية لقمان الحكيم لابنه:

«يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين مرجعاً.. يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجند، ولا يغرنك الشيطان بجندك وملكك وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.. يا بني: أنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله.. يا بني: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو

سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا ونموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل.. يا بني: أعلم أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها.. يا بني: إنني انتقل إلى جوار ربي، وأنا فخور بك، بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل الله لنشر دين الإسلام.. يا بني: أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم وأنزل على مشورتهم، فإنهم لا يأمرون إلا بالخير.. يا بني: إياك أن تفعل أمراً لا يرضي الله عز وجل وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فإنهم سيدلونك على الخير.. وأعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وإننا لسنا طلاب جاه ودنيا.. يا بني: وصيتي لكم ولأبنائي وأصدقائي، أديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد. أخدموا الإسلام دائماً؛ لأن الله عز وجل قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.. يا بني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت، وقد اقترب أجلي بأمر الله جل جلاله، أسلمك هذه الدولة واستودعك المولى عز وجل، واعدل في جميع شؤونك».

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليها السلاطين العثمانيون، فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية، وبالجيش والمؤسسات العسكرية وبالعلماء

واحترامهم لهم وبالجهاد وصل جيوش الفتح العثماني الإسلامي إلى أبواب فيينا ومن المغرب إلى باب المندب ومن البحرين إلى وادي الرافدين.

أسس الغازي عثمان أرطغرل إمبراطورية على دعائم قوامها الدين الإسلامي الحنيف والشريعة السمحاء. وتوقير كلام الله عز وجل ، إذا صدرت الأوامر السلطانية بتاريخ 25 تموز / يوليو عام 1518، بأن تتم قراءة القرآن الكريم بصورة متواصلة من دون توقف من قبل أشخاص يمتلكون الصوت الجميل. ولم تتوقف القراءة لحظة واحدة حتى 3/ 3/ 1924((تاريخ خلع آخر سلاطين الدولة العثمانية» أي أن القراءة استمرت 405 سنة و7 أشهر و9 أيام.. هذه القراءة المتواصلة للقرآن كانت تحدث في دائرة «خرقة السعادة» وهي أحد أقسام قصر «طوب قابو» مقر الحكم.

وأما كيف دفعت أمريكا الجزية لهذه الإمبراطورية العملاقة، وفيما يلي ملخص قصة معاهدة الصلح:

وقع جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي معاهدة صلح مع بكللر حسن والي أيالة الجزائر، التزمت بموجبها أمريكا أن تدفع إلى أيالة الجزائر العثمانية على الفور مبلغ 642 ألف دولار ذهبي، و1200 ليرة عثمانية، وذلك مقابل أن تطلق البحرية العثمانية سراح الأسرى الأمريكيين الموجودين لديها.

ففي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي استغاثت الجزائر بالدولة

العثمانية الفتية لحمايتها من الغزو الذي تتعرض له من قبل أسبانيا والبرتغال بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس. فاستجابت الدولة العثمانية لندائهم وضمت الجزائر لسلطانها وحمايتها، وبعثت بقوة من سلاح المدفعية وألفين من الجنود الانكشارية، وأذن السلطان سليم ياووز «سليم الأول» لمن يشاء من رعاياه المسلمين بالسفر إلى أيالة الجزائر«ولاية الجزائر» والانخراط في صفوف المجاهدين تحت قيادة البطل خير الدين باربا روس الذي نجح في إنشاء هيكل دولة قوية بفضل المساعدات التي تلقاها من الدولة العثمانية وأسس أسطولاً بحرياً قوياً، أصبحت الجزائر سيدة بحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي وجعل المجاهد باربا روس من أيالة الجزائر قاعدة بحرية عثمانية.

وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بدأت السفن الأمريكية -بعد أن انتزعت أمريكا استقلالها عن انجلترا سنة 1190 للهجرة الموافق لعام 1776 للميلاد- ترفع أعلامها لأول مرة سنة 1197 للهجرة الموافق للعام 1783 للميلاد وتجوب البحار والمحيطات.

ففي إحدى الرحلات، تعرض البحارة العثمانيون في أيالة الجزائر لسفن الولايات المتحدة التي كانت تتعرض لهم فاستولوا على إحدى سفنها في مياه قادش وذلك في رمضان عام 1199 للهجرة الموافق لشهر تموز / يوليو1785 للميلاد، ثم ما لبثوا أن استولوا على إحدى عشرة سفينة أمريكية أخرى وساقوها إلى السواحل الجزائرية. فشلت محاولات استردادها. لعجز البحرية الأمريكية من مواجهة الأسطول العثماني، بحيث اضطرت الولايات المتحدة

الأمريكية إلى الصلح وتوقيع معاهدة مع الدولة العثمانية في أيالة الجزائر في « 21 من صفر 1210 للهجرة الموافق 5 من أيلول / سبتمبر 1795 للميلاد». تضمنت المعاهدة 22 مادة مكتوبة باللغة التركية، وهذه الوثيقة هي المعاهدة الوحيدة التي كتبت بلغة غير إنكليزية ووقعت عليها الولايات المتحدة الأمريكية خلال تاريخها. وفي الوقت نفسه هي المعاهدة الوحيدة التي تعهدت فيها الولايات المتحدة بدفع ضريبة سنوية لدولة أجنبية وبمقتضاها استردت الولايات المتحدة سفنها وأسراها وضمنت عدم تعرض الأسطول العثماني لسفنها وعلى الرغم من ذلك فإن السفن العثمانية التابعة لأيالة طرابلس «ليبيا» تعرضت للسفن الأمريكية التي كانت تدخل البحر المتوسط وترتب على ذلك أن أرسلت الولايات المتحدة أسطولاً حربياً إلى ميناء طرابلس في عام 1218 للهجرة الموافق لعام 1803 للميلاد، وأخذ يتبادل نيران المدفعية مع السفن العثمانية. وأثناء القتال جنحت سفينة الحرب الأمريكية «فلاديليفيا» إلى المياه الضحلة، لعدم دراية بحارتها بهذه المنطقة وضخامة حجمها حيث كانت تعد أكبر سفينة في ذلك التاريخ، ونجح البحارة العثمانيون المسلمون في أسر أفراد طاقمها المكون من 300 بحار.

طلب والي ليبيا «قرة مانلي يوسف باشا» من الولايات المتحدة غرامات مالية تقدر بثلاثة ملايين دولار ذهباً وضريبة سنوية قدرها 20 ألف دولار وطالب في نفس الوقت «محمد حمودة باشا» والي تونس الولايات المتحدة بعشرة آلاف دولار سنوياً.

رضخت الولايات المتحدة الأمريكية لهذه المطالب وظلت تدفع هذه الجزية «الضريبة» حماية لسفنها حتى سنة «1227 للهجرة الموافق لعام 1812 للميلاد» حيث سدد القنصل الأمريكي في الجزائر 62 ألف دولار ذهباً وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي تسدد فيها أمريكا الضريبة السنوية.

هذه هي الإمبراطورية التي أسسها الغازي المجاهد عثمان أرطغرل على أساس من التقوى والإيمان والأخذ بالأسباب. مسك بعدها بنوه بزمام النصر الذي وعد الله المؤمنين به.

فهل توضح الآن لماذا شوه المستشرقون والمستعربون تاريخ الإمبراطورية العثمانية. وهل من الممكن أن نتحد مرة أخري تحت راية الإسلام.. أتمني ذلك.

أشهر معارك سلطان السلاطين عثمان أرطغرل

معركة بافيوس

من أشهر معارك سلطان السلاطين عثمان أرطغرل معركة بافيوس وقعت في 27 يوليو 1302م / 1 ذو الحجة 701 هـ بين الجيش العثماني تحت قيادة عثمان أرطغرل والجيش البيزنطي بقيادة «جورج موزالون». وهي تعد أول معارك الدولة العثمانية التي انتهت بنصر حاسم للعثمانيين، وتدعيم الدولة العثمانية ومن ثم استيلاء الأتراك الكامل على بيثنيا البيزنطية بعدها.

* كان أرطغرل والد عثمان الأول قائداً لقبيلة قاي التركية وعندما وصل أرطغرل بفرسانه الـ 400 لمساعدة السلاجقة الروم في حروبهم ضد البيزنطيين ولمكافأته على مساعدته فقد أعطاه علاء الدين السلجوقي أراضي قريبة من أنقرة كهدية له وقام أرطغرل بعد ذلك بضم قرية سوغيت التي غزاها عام 1231 إلى الأراضي التي تحت سيطرته لتكون إقطاعية خاصة به.

* بعد وفاة أرطغرل في 1282م قاد عثمان الأول هذه الإقطاعية، وعلى

مدى العقدين التاليين شن سلسلة من الغارات أكثر من أي وقت مضى إلى عمق المناطق الحدودية البيزنطية من بيثنيا، كما أنه هدد مدن عدة كمدينة نيقية «أزنيق حديثاً» التي حاصرها في 1301م والتضييق على مدينة بورصا، والمدينة الساحلية نيقوميديا «إزميد حديثاً» التي أصلب أهلها مجاعة.

* في عام 1302م قاد الإمبراطور ميخائيل التاسع باليولوج «1294 ـ 1320م» حملة من المرتزقة وصلت الجنوب إلى مغينسيا، وقد فزع الأتراك من تعداد جيشه الكبير وحاولوا تجنب المعركة وقرر فعلاً مواجهة الأتراك إلا أن قادته أقنعوه بعدم الهجوم.

* شجع ذلك الأتراك لمعاودة غاراتهم على المدن البيزنطية، واضطر الجيش البيزنطي إلى التراجع لحماية منازلهم، كما أن قوات المرتزقة تراجعت وانضموا إلى عائلاتهم في تراقيا، مما جعل جيش الإمبراطورية تتناقص أعداده، فاضطر للانسحاب بقواته عن طريق البحر. واتبع ذلك موجات من اللاجئين.

تفاصيل المعركة

* لمواجهة التهديد على نيقوميديا، أرسل والد ميخائيل أندرو نيكوس الثاني باليولوج «1282 ـ 1328م» قوة بيزنطية حوالي 2000 من الرجال نصفهم من المرتزقة تابعة لجيش حراس الإمبراطورية «ميغاس هيتيريا» تحت قيادة «جورج موزالون» لعبور مضيق البوسفور والتخفيف على المدينة.

* في سهل بافيوس «باليونانية: Bacpevc» ربما إلى الشرق من نيقوميديا

ولكن على مرأى من المدينة.

وفي يوم 27 يوليو 1302م التقى البيزنطيين جيش الأتراك المكون من حوالي 5000 من سلاح الفرسان تحت قيادة عثمان أرطغرل نفسه ويتألف من القوات الخاصة به وكذلك حلفاء من القبائل التركية من بافلاغونيا ومنطقة نهر ماينذر.

* سلاح الفرسان التركي كلف الجيش البيزنطي خسائر كبيرة، مما جعل «موزالون» ينسحب بقواته إلى نيقوميديا تحت غطاء من قوات المرتزقة.

نتيجة المعركة

* لقد كانت هذه المعركة أول انتصار للدولة العثمانية الوليدة على الإمبراطورية البيزنطية. وذات أهمية كبيرة للتوسع في المستقبل، فقد البيزنطيون على أثر ذلك السيطرة بشكل كامل على ريف بيثنيا. وسقطت حصونهم المعزولة واحدة تلو الأخرى.

* كما أثارت الهزيمة البيزنطية نزوح جماعي للسكان البيزنطيين من المنطقة إلى الأجزاء الأوروبية من الإمبراطورية. مما غير التوازن الديموغرافي في المنطقة إلى جانب الهزيمة في مغينسيا والتي سمحت للأتراك بالوصول إلى سواحل بحر أيجة وأثبات وجودهم.

* معركة بافيوس بشرت بخسارة البيزنطيين لآسيا الصغرى. حيث سمحت هذه المعركة للعثمانيين بتحقيق خصائص وصفات الدولة. لذلك

يمكن اعتبار هذا التاريخ هو تاريخ تأسيس الإمارة العثمانية المستقلة ذات السيادة. وكان الفتح العثماني ليثينيا تدريجياً، والعاصمة الاستيطانية البيزنطية نيقوميديا سقطت في سنة 1337م.

عهد عثمان أرطغرل
مؤسس الدولة العثمانية

تحدد خلال عهد عثمان أرطغرل الوضع العسكري والسياسي للترك العثمانيين، وكان وضعهم الديني قد تحدد قبل ذلك بفعل تأثرهم بالدين الإسلامي الذي كان منتشراً في البيئات التركية في آسيا الوسطى والغربية، إلا أن ما ميزهم عن العديد من السلالات الإسلامية المجاورة كان توفيقهم بين أكبر مذهبين إسلاميين، فعلى الرغم من اعتناقهم المذهب السني الحنفي، إلا أنهم أظهروا تأثراً ببعض جوانب المذهب الشيعي الجعفري؛ لأن المعتقدات السنية والشيعية الأثنا عشرة كانت قد كونت مزيجاً واحداً إسلامياً لدى قبائل التركمان التي ارتحلت من آسيا الوسطى إلى الأناضول، وفي مقدمتها سلاجقة الروم التي عمل آل عثمان في خدمتها.

أما من الناحية العسكرية، فقد كان لموقع ومركز عثمان أرطغرل أثر كبير في نجاحه، فمدينة سكود تقع على مرتفع يسهل الدفاع عنه من جهة، وعلى الطريق الرئيسي الممتد من القسطنطينية إلى توبية من جهة أخرى، وتكمن أهمية هذا المركز بفعل التجزئة السياسية للمنطقة التي أعطت الوحدات الصغيرة

أهمية أكثر من ذي قبل. وأتاحت مجاورته لأراضي الإمبراطورية البيزنطية توجيه نشاطه نحو الحرب والجهاد لاستكمال رسالة السلطة السلجوقية الرومية بفتح الأراضي الرومية كافة، وإدخالها ضمن الأراضي الإسلامية والخلافة العباسية، وشجعه على ذلك حالة الضعف التي دبت في جسم الإمبراطورية البيزنطية وأجهزتها، حيث أتاح له ذلك سهولة التوسع باتجاه غربي الأناضول، وفي عبور مضيق الدردنيل إلى أوربا الشرقية الجنوبية أكثر مما أتاح له الالتفات نحو جيرانه المسلمين بالإضافة إلى انهماك البيزنطيين بالحروب في أوروبا. إلا أنه على الرغم من ذلك لا يمكن المبالغة في تراجع القوة البيزنطية في هذه المنطقة، إذ قام البيزنطيون خلال عهد كل من ميخائيل الثامن وأندرو نيقوس الثاني «681 ـ 728هـ/ 1282 ـ 1328م» بتحصين حدود منطقة بيثينيا لصد الغزوات الإسلامية التي كان عليها أن تقطع نهر سقاريا إلى مدن هذه المقاطعة، لكن هذه التحصينات كانت عديمة الفائدة أمام التحرك العثماني على طول مجرى النهر من الجنوب إلى الشمال والغرب، إضافة إلى ذلك فقد وصلت كل من السلطة السلجوقية والإمبراطورية البيزنطية إلى حال إعياء شديد نتيجة الصراع الطويل بينهما، والدولة الأولى للغزو المغولي، والدولة الثانية للغزو اللاتيني خلال الحملة الصليبية الرابعة، هو ما أحدث فراغاً سياسياً وعسكرياً في الأناضول، وقد هيأ ذلك لظهور دولة تملأ هذا الفراغ على إنقاص الدولتين المتداعيتين وهي الدولة العثمانية.

ومن الناحية السياسية، فقد أظهر عثمان أرطغرل مقدرة فائقة في وضع

النظم الإدارية لإمارته، بحيث قطع العثمانيون في عهده شوطاً بعيداً على طريق التحول من نظام القبيلة المتنقلة إلى نظام الإدارة المستقرة. مما ساعد على توطيد مركزها وتطورها سريعاً إلى دولة كبرى، ثم أن مركز الإمارة في الشمال الغربي للأناضول بجوار العالم الغربي، قد فرض على العثمانيين سياسة عسكرية معينة بوصفها إمارة حدودية، والمعروف في تاريخ الأناضول أن الأمارات التي نشأت على الحدود كانت أوفر حظاً في عوامل النمو والتطور من إمارات الداخل. وتبدو أهمية موقع الإمارة العثمانية من ناحية بعدها عن مناطق الغزو المغولي وعن نفوذ الإمارات التركمانية القوية في جنوبي الأناضول وجنوبه الغربي، ووقوعها بالقرب من طريق الحرير الذي يربط المناطق الرومية في الغرب بالمناطق التي يسيطر عليها المغول في الشرق الأمر الذي جعل لها خصائص استراتيجية واقتصادية بارزة. إضافة إلى ذلك فقد شكلت الإمارة الرباط الوحيد الذي يواجه المناطق البيزنطية التي لم تفتح بعد، فجلب إليها هذا الوضع الخاص أعداداً كثيرة من التركمان الطامعين في الغزو والجهاد، والدراويش الباحثين عن المريدين، والمزارعين الفارين من وجه المغول، وقد وجدوا في أراضيها الخصبة مكاناً ملائماً لممارسة نشاطهم الزراعي.

حلم عثمان:-

تنص المصادر العثمانية على قصة حدثت في بداية عهد عثمان أرطغرل، علق عليها المؤرخين المسلمين قدياً «وخصوصاً الأتراك» الكثير من الأهمية

لرمزيتها. على أن المؤرخين المعاصرين يتفقون على أن هذه القصة ليست أكثر من وسيلة جذابة تهدف لتسلط الأضواء على العثمانيين، وتقدم الدولة العثمانية وإحاطة هذا بهالة روحانية لا سيما وأن خلفاء عثمان حققوا الكثير من المعجزات الهامة. فتمكنوا من توحيد البلاد الإسلامية بعد قرون من تمزقها وأعادوا إحياء الخلافة العثمانية الفعلية بعد أن أصبحت خلافة صورية تحت حماية سلاطين المماليك بمصر منذ أن قتل المغول المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباسي في بغداد وحققوا ما لم تقدر عليه أية سلالة أخرى، إلا وهو فتح القسطنطينية وتخطوها إلى أوروبا الشرقية، أضف إلى ذلك المصادفة حيث تختصر تلك القصة أحداث قرنين من حياة الدولة العثمانية قبل أن تقع. أما تفاصيل هذه القصة، فتفيد أن عثمان كان يبيت في تكية معلمه «إده بالي» كما اعتاد أن يفعل منذ صغره؛ ليتقرب من الشيخ سالف الذكر وينتفع بعلمه. وفي إحدى المرات رأى مصادفة «مال خاتون» ابنة الشيخ المذكور فتعلق بها ورغب أن يتزوجها ولكن والدها أبى أن يزوجها له. فحزن عثمان لذلك، وأظهر الصبر والجلد ولم يرغب الاقتران بغيرها حتى قبل أبوها بعد أن قص عليه عثمان مناماً رآه ذات ليلة، وهو أن رأى الهلال صعد من صدر هذا الشيخ وبعد أن صار بدراً نزل في صدره «أي في صدر عثمان» ثم خرجت من صلبه شجرة كالسراي نمت في الحال حتى غطت العالم بظلها، واستقرت جبال ثلاثة تحتها، وخرجت أنهار النيل ودجلة والفرات والطونة «الدانوب» من جذعها ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف والرماح يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية.

وتحت الأغصان وقف صبيان شقر وعلى رؤوسهم تل أبيض ينشدون الشهادة يتبعها عهد الولاء للسلطان، وكان الخلق من حول هؤلاء الصبيان بلا عدد على شطوط الأنهار وفي خلجانها، يشربون ويزرعون وكانوا يتوالدون والخير يورق في ديارهم، فتفائل الشيخ من هذا المنام وأظهر سروره الكبير وقبل تزويج ابنته إلى عثمان وبشره بأن أسرته ونسله سوف يحكمون العالم وقال له واصفاً ما يكون عليه الحاكم الصالح:

«أي بني! الآن أصبحت ملكاً! من الآن فصاعداً، عليك الهناء لنا، وعليك الاحتمال نحن العاجزون الخطأوون وأنت الصبور نحن المتقاتلون وأنتم العادلون نحن الحاسدون النمامون المفترون وأنتم المتسامحون أي بني من الآن فصاعداً نحن تشرذم وأنت توحد نحن نتكاسل وأنت تنذر وتدفع أي بني الصبر الصبر، فالزهرة لا تتفتح قبل أوانها، إياك والنسيان ارعى شعبك وستزدهر دولتك أي بني حملك ثقيل وشأنك عسير أعانك رب العالمين».

جرى ربط ظهور عثمان على الساحة السياسية، واكتسابه لوصف زعيم الجهاد بالعلاقة التي ربطته بالشيخ «إده بالي» التي توجت بالمصاهرة كما سلف، ويميل بعض المؤرخين إلى اعتبار زواج عثمان بابنته هذا الشيخ أول خطوة سياسية بارعة منه، إذ أن هذا الشيخ كان قائداً للفرقة البابانية المنسوبة إلى بابا إسحق الذي قاد ثورة ضد سلاجقة الروم منذ حوالي سنة 1239م إلى أن قبض عليه وشنق سنة 1241م. وتفسر علاقة المصاهرة بين العثمانيين والشيخ القائد لهذه الجماعة علاقة العداء التي قامت بين العثمانيين وبين إمارة كرميان.

فالمعروف أن أسرة كرميان قد كوفئت من قبل السلاجقة بسبب خدماتها في إخضاع الثورة البابانية. فقد أظهر عثمان في بداية عهده براعة سياسية في علاقاته مع جيرانه حيث التحالفات تتجاوز الخطوط القبلية والدينية، وربما تبع في ذلك غريزته ومتطلبات تطلعاته السياسية، إلا أنه لم يخطئ في تقدير النتائج المستقبلية للعلاقات العائلية التي أقامها لنفسه وضمنها لابنه من بعده. فأعاد تشكيل الثقافة السياسية لسلاجقة الروم بما يتوافق مع حاجات إمارته، فكان أكثر إبداعاً من جيرانه البيزنطيين من قادة المدن والقرى الرومية فكانت عشيرته حين تنتقل بين مناطق الرعي في الصيف تنزل حاجياتها في قلعة «بيله جك» البيزنطية وعند عودتها كانت تهدي مسؤولي هذه القلعة عربون تقدير لخدماتهم، من الجبن وزبدة الحليب المحفوظة في جلود الحيوانات والسجاد الجيد، الأمر الذي يعكس علاقة التعايش بين الرعاة والمزارعين أو ساكني المدن. وشكلت علاقة الصداقة بين عثمان و «كوسه ميخائيل» حاكم قرية هرمنكايا ذروة هذا التعايش والامتزاج بين المسلمين والروم أما علاقاته بخصومه من الجماعات الأخرى كالمغول الذين انتقل معظمهم إلى مناطق الأطراف في غربي الأناضول والكرميانيين فقد كانت عدائية؛ لأن الترك كانوا في حال عداء مع المغول، ثم أن الكرمانيين كانوا من غير الغز «الأدغوز» على الأرجح فقد اصطدم مع «جغدار» أحد قادة المغول في أرض كرميان والواضح أن الصراع بين المغول والكرمانيين كان أشد في أوائل عهد الإمارة.

وتحالف عثمان مع الأخوة الفتيان وهؤلاء هم الجماعات المنظمة التي كان

أعضائها يعملون في حرفة واحدة وقد جعلوا واجبهم حفظ العدل ومنع الظلم وإيقاف الظالم عند حده واتباع الشريعة الإسلامية، وما تمليه الأخلاق الحميدة وتنفيذ واجبات عسكرية إن دعت الحاجة للدفاع عن حقوقهم وحقوق المسلمين.

كما تحالف مع القبائل التركمانية القادمة إلى الأناضول والتي شكلت القلب النابض لهذه المقاطعات الحدودية بشكل عام، والإمارة العثمانية بشكل خاص؛ لأنهم كانوا أكثر نشاطاً وفعالية من الترك المستقرين في المدن. كما أغرس الكثير من التركمان القاطنين في منطقة الميائدر وبفلاغونية على الانضمام إلى قواته. وكان هؤلاء التركمان محاربين جيدين يتلهفون إلى الجهاد والغزو وانتسب كل منهم إلى أحد شيوخ الطرق وإلى إحدى التكايا حيث تعلموا معنى الجهاد في سبيل الله إلى جانب الكثير من المبادئ والشريعة الإسلامية، إلا أن قسماً أخر من هؤلاء التركمان لم تكن لديهم روابط وثيقة بالدين الإسلامي؛ لأسباب مختلفة، فعهد عثمان إلى الشيوخ والدراويش أن يقوموا بتربية هؤلاء تربية إسلامية ويشبعونهم بالقيم التي تتمثل في تعظيم فتح الأقطار المعادية؛ لاكتساب أراضي جديدة؛ لتوسيع رقعة دار الإسلام، والواقع أن هؤلاء الشيوخ والدراويش كانوا شديدي التحمس لترويج طرق «أولياء خراسان» فأقبلوا على تعليم النازحين الجدد بشراهة واضحة. أما من حيث الرئاسية فقد كان عثمان تابعاً في البداية لأمير بنو شيان في قسطمونى ثم للسلطان السلجوقي من خلال أمير كرميان في كوتاهية الذي كان تابعاً بدوره إلى الإلخان المغولي في تبريز ـ وفي

الحقيقة كان السلطان السلجوقي قد فقد في هذه الفترة القدرة الفعلية على تسيير الأمور وكان الإلخان يسير أعماله بواسطة الولاة العاملين الذين هم في الوقت ذاته قادة عامون يعينهم في الأناضول وكان على الأمراء الحدوديين ومن بينهم عثمان ـ أن يرسلوا الجند في حالة طلب الإلخان ذلك ـ وبطبيعة الحال فأن أئمة المساجد كانوا يذكرون على المنابر أولاً أسم الخليفة العباسي في مصر، ثم الإلخان المقيم في تبريز ثم السلطان السلجوقي في قونية وأخيراً اسم الأمير المحلي.

تمدد الإمارة العثمانية

كان على عثمان أرطغرل بعد أن ثبت أقدامه في إمارته، أن يكافح على جبهتين: الجبهة البيزنطية وجبهة الإمارات التركمانية التي أبدت معارضة له وبخاصة الإمارة الكرميانية وقد وضع نصب عينيه توسيع رقعة إمارته على حساب البيزنطيين أولاً، ومنذ تلك المرحلة أصبح الهدف الأساسي للإمارة العثمانية هو إتباع سياسة الفتح التي ترتكز على مفهوم الغزو والجهاد ضد ديار الروم، وتشير بعض الروايات إلى أن أول غزوة شنها عثمان أرطغرل ضد الروم، كانت بهدف الثأر من هزيمة حلت به سابقاً في منطقة «أرمني ـ بلي» أي «تلة الأرمن» في ربيع سنة 683 أو 684هـ الموافق لسنة 1284 أو 1285م، حيث كمن له البيزنطيون بقيادة «تكفور» عامل بورصة وعلى الرغم من أن عثمان أرطغرل عرف بأمر الكمين من أحد الجواسيس إلا أنه أثر الالتحام مع البيزنطيين فانهزم واضطر إلى الانسحاب وخسر بعض رجاله من ضمنهم «صاروخان بك خجا» ابن أخيه «ساوجي بك»، وبناء على هذا توجه عثمان حوالي سنة 685هـ الموافق لسنة 1286م على رأس قوة عسكرية قوامها ثلاثمائة مقاتل إلى قلعة «قولاجه حصار» التي تبعد فرسخين عن مدينة

«إينه كول» في نطاق جبل «أمير داغ» وهجم عليها ليلاً وتمكن من فتحها، وبذلك أزدات إمارته اتساعاً في اتجاه الشمال لامتداد بحيرة إزنيق. أثار انتصار العثمانيين في قولاجه حصار حفيظة عامل الروم على المدينة، فلم يرضى أن يكون تابعاً وخاضعاً لأمير حدودي مسلم فتحالف مع عامل قلعة «قرة جه حصار» واتفقا على قتال المسلمين واسترداد ما غنموه من أراضي بيزنطية والتقى الجمعان في «إكزجة» الواقعة بين «بيله جك» و «إينه كول» حيث دارت معركة طاحنة، وقتل فيها «ساوجي بك» أخو عثمان لكنها أسفرت عن انتصار المسلمين ودخولهم قلعة «قرة جه حصار» ومقتل «بيلاطس» قائد القوات البيزنطية. وعين أول قاض وصوباشي «حاكم» للمدينة واختلف المؤرخون في تمديد تاريخ فتح هذه المدينة على أن أحداً لم يجعل الفترة تسبق سنة «685هـ - 1286م» أو تتخطى سنة «691هـ - 1291م» وجعل عثمان المدينة الجديدة قاعدة له للانطلاق نحو بلاد الروم، وأمر بإقامة الخطبة باسمه وهو أول مظهر من مظاهر السيادة والسلطة.

كان هذا الانتصار الذي حققه عثمان أرطغرل من أعظم انتصاراته في تاريخه، فأبدى السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث تقديره العميق لما حققه عثمان من إنجازات باسم السلاجقة والإسلام فمنحه لقب «عثمان غازي حارس الحدود على الجاه» كما أضاف له لقب «بك» واقطعه كافة الأراضي التي فتحها إلى جانب مدينتي إسكى شهر وإينونو وأصدر مرسوماً يعفيه فيه من كل أنواع الضرائب وأرسل إليه عدة هدايا تدل على الإمارة

وعظم شأنه عند السلطان وهي: راية حربية ذهبية ومهتر «طبل كبير» والطوغ «شارة رأس يضعها الأمراء» والشرابة والسيف المذهب وسرجاً مفضفضاً ومائة ألف درهم حملها إليه الوزير السلجوقي وأجاب عثمان في أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة في المناطق الخاضعة له كما أجاز له سك العملة باسمه وبذلك صار عثمان ملكاً بالفعل لا ينقصه إلا اللقب.

بعد تمام فتح قلعة «قرة جه حصار» سار عثمان بجنوده ناحية شمال صقاريا فأغار على قلعتي «كوينوك» و «ينيجه طاراقلي» وعاد محملاً بالغنائم، وفي تلك الفترة تنص الروايات العثمانية على أن عثماناً تلقى تحذيراً من صديقه الرومي «كوسه ميخائيل» حاكم قرية هرمنكايا مفاده أن هناك مؤامرة سرية أحيكت ضده من قبل صاحبي قلعتي «بيله جك» و «يار حصار» اللذان هدفا إلى القبض عليه وقتله بعد أن دعياه إلى حفل زفاف ولديهما الكائن في القلعة الأولى فما كان من عثمان إلا أن دبر بعض الدسائس الحربية، فأرسل أربعين فارساً من فرسانه إلى الحفل متنكرين بأزياء النساء وما أن دخل هؤلاء «بيله جك» حتى كشفوا عن هويتهم فتمكنوا من أسر كافة المدعوين بما فيهم العروسين وفتحوا القلعة علناً. ومن الجدير بالذكر أن هذه الوقعة أسرت فيها امرأة قيل بأنها ابنة تكفور تدعى «هولوفيرا» سميت لاحقاً «نيلوفر خاتون» واصطفاها عثمان لابنه أورخان فتزوجها وأنجبت له مراد لتكون بذلك أول امرأة أجنبية في قصور آل عثمان. سعى عثمان أرطغرل بعد فتحه قلعتي بيله جك ويار حصار إلى القضاء على صاحب إينه كول الذي حالف عامل قره جه حصار

على العثمانيين سابقاً كي يحول دون إبرام أي تحالف أخر بين بقايا الإمارات البيزنطية في الأناضول فبادر إلى إرسال أحد قادة جيشه ويدعى «طور غود ألب» لمحاصرة قلعة إينه كول ثم التحق به وتمكن من فتحها وهناك رواية تذكر أن عثمان منح هذه القلعة إلى طور غود ألب؛ ولذلك سميت البلدة فيما بعد «طور غود» تيمناً بأول أمير مسلم عليها.

ثم تطلع عثمان بعد انتصاراته المتعددة إلى التمدد على محورين، وذلك بهدف عزل المدن البيزنطية التي أراد فتحها فقطع الطريق المؤدي إلى مدينة إزنيق من الجهة الشرقية وتقدم من الغرب صوب لوباديون ـ أولوباط ـ وأورانوس ثم التف حول سلسلة جبال أولوطاغ من الشمال والجنوب متجنباً دخول مدينة بورصة المحصنة، فأتصل بجيرانه المسلمين في الجنوب الشرقي. ولما كانت الإمبراطورية البيزنطية منهمكة بإخماد القلاقل في العاصمة وفي البلقان، ومشغولة بالصدامات المستمرة مع أعدائها الأقوياء في الأناضول، أمثال القرمانيين والإمارات الساحلية، فإنها لم تستطع ولمدة طويلة أن تتحرك ضد عثمان الذي وجد نفسه حراً في التوسع على حسابها. وفي الوقت ذاته كانت السلطنة السلجوقية الرومية تعيش أيامها الأخيرة وقبضتها تضعف شيئاً فشيئاً على الإمارات التركمانية وكان الإلخان المغولي محمود غازان غاضباً على السلطان علاء الدين كيقباد الثالث؛ لكثرة اشتكاء مرؤوسيه منه، إذ كان هذا السلطان قد شرع بتطهير بلاطه من رجال وحاشيته سابقة السلطان غياث الدين مسعود بن كيكاوس، منتهجاً في ذلك نهجاً بالغ القساوة الأمر الذي

نجم عنه تراجع شعبيته في الأوساط العسكرية والسياسية السلجوقية، فطلبه الإلخان إلى تبريز حيث اغتاله وفق إحدى الروايات، وأعاد تنصيب السلطان غياث الدين مسعود بدلاً منه. وفي رواية أخرى أن جموع المغول والتتر أغارت على بلاد آسيا الصغرى في سنة 699هـ الموافق لسنة 1300م تقريباً. وقتلت السلطان علاء الدين كيقباد في عاصمة ملكة قونية كما قيل أن غياث الدين مسعود قتله بنفسه طمعاً بعودة الملك إليه. وقيل أيضاً أن علاء الدين كيقباد نجا بنفسه والتجأ إلى الإمبراطور البيزنطي واحتمى في بلاطه إلى أن أدركه الموت. وبجميع الأحوال فإن سلطنة غياث الدين مسعود كانت قصيرة ودامت ما بين 4 و 6 سنوات، وعندما توفي زالت معه سلطنة سلاجقة الروم نهائياً وقيل أيضاً أن المغول قتلوه وقضوا على دولته فاتحين المجال للإمارات التركمانية بالاستقلال.

ولقد أتاح زوال السلطنة السلجوقية الرومية لعثمان بأن يستقل بالأراضي المقتطعة له كافة ولقب نفسه «ياديشاه آل عثمان» أي «عاهل آل عثمان» ووضع نصب عينيه ضم آخر الثغور والقلاع والحصون البيزنطية إلى ديار الإسلام وقيل أنه: لما مات السلطان علاء الدين السلجوقي في قونية ولم يكن له ذرية اجتمع الوزراء والأعيان وقرروا أن لا يليق للسلطنة سوى عثمان الغازي فعرضوا عليه هذا الأمر فأجاب طلبهم وصار سلطاناً من هذا التاريخ. كما تشير الكثير من الروايات العثمانية إلى أن استقلال عثمان بالأمر كان سنة 687هـ الموافق لسنة 1299م في حين يقول قسم من المؤرخين المعاصرين أن

هذا غير دقيق فسلطنة سلاجقة الروم لم تنتهي إلا بوفاة السلطان غياث الدين مسعود سنة 1306م، ولعل الاستقلال الذي ذكر في التاريخ العثماني يقصد به أن السلطنة فقدت هيمنتها على الإمارات الحدودية بعد أن اضمحلت إدارتها، وأن الاستقلال الفعلي للإمارة العثمانية لم يحل إلا بعد وفاة الإلخان المغولي أبو سعيد ببادر خان سنة 736هـ الموافق لسنة 1335م من دون أن يعين خلفاً له، مما أدى إلى نشوب صراعات على الحكم في الدولة الإلخانية كانت نتيجتها استقلال إمارات الأناضول استقلالاً فعلياً.

معركة بافيوس

بعد أن استتب الأمر لعثمان أرطغرل وضمن استقلاله بشؤون البلاد سواء التي فتحها أو التي ولى عليها، اشتغل في تنظيمها وترتيب أمورها وقبل الدخول في معارك أرسل إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور: الإسلام أو الجزية أو الحرب، فأسلم بعضهم وفي مقدمتهم «كوسة ميخائيل» صديق عثمان القديم، وبقيت ذريته مشهورة في التاريخ العثماني باسم عائلة «ميخائيل أوغلي»، وقبل بعضهم دفع الخراج وقرر الباقون القتال. وتنادى هؤلاء الأمراء البيزنطيون في بورصة ومادانوس وأدرهنوس وكته وكستله في سنة 700هـ الموافقة لسنة 1301م؛ لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان أرطغرل بعد أن بدا واضحاً أنه يسعى لتضيق الخناق على بورصة أكثر المدن الرومية تحصيناً في الأناضول تمهيداً للاستيلاء عليها وضمها إلى ممتلكاته، وبعد أن فتح العثمانيون مدينة نيقوميديا وسيطروا على حقول الحنطة المجاورة لها، استجاب الروم لهذا النداء وتحالفت الإمارات الرومية الأناضولية الباقية للقضاء على الدولة الناشئة. وفي ربيع سنة 1302م زحف الإمبراطور البيزنطي ميخائيل التاسع برجاله حتى وصل جنوب منطقة مغنيسيا وهو يعتزم الاشتباك مع العثمانيين وطردهم من مناطق التخوم لكن قادة جيشه أثنوه عن فعل ذلك

بسبب ما تبادر لهم عن تحضيرات العثمانيين، وكفاءتهم القتالية العالية وجهاً لوجه وفي الواقع فإن العثمانيون تجنبوا القتال مع البيزنطيين لما رأوا حشدهم الضخم لكنهم استمروا في فتح البلدات والمواقع البيزنطية الصغيرة وانتزعوها الواحدة تلو الأخرى حتى طوقوا الإمبراطور البيزنطي وعزلوه في مغنيسيا فتفكك جيشه دون قتال، وانسحب الروم عائدين إلى القسطنطينية فيما أثر بعضهم البقاء والقتال مع إخوانهم.

شكل حراك الإمبراطور البيزنطي نذيراً للقرى والبلدات الإسلامية الحدودية وتذكيراً بأن وجودهم سيبقى على المحك ما لم يتحالفوا ويتحدوا تحت راية قائد قوي قادر على دفع الحملات البيزنطية بعد أن زالت سلطنة سلاجقة الروم. ولما لمس السكان قدرة عثمان القيادية والعسكرية العالية وإخلاصه للدين الإسلامي تحركوا لمساندته والوقوف معه؛ لتوطيد دعائم دولة إسلامية تضم شتاتهم وتقف سداً منيعا بوجه البيزنطيين. والتحق بعثمان بعض القادة الروم الذين فضلوا العمل لصالحه على أن يعودوا لبلادهم، وكان قسماً منهم من أسرى الحروب المعتقين. كما انخطرت الكثير من الجماعات الإسلامية تحت لواء العثمانيين كجماعة «غزاة الروم» أو «غزيا روم» كما سميت بالتركية وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الإمبراطورية البيزنطية وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات في حرب الروم. وسارع رفاق درب عثمان من قادة الأخية الفتيان إلى الانضمام إليه وعرض خدماتهم عليه وهؤلاء هم: «الغازي عبد الرحمن» و

«أقجة خجا» و «قونور ألب» و «طور غود ألب» و «حسن ألب» و «صالتوق ألب» و «أيكود ألب» و «أقه تيمور» و «قره مرسل» و «قره تكين» و «صامصا جاويش» و «الشيخ محمود» وغيرهم من قادة الأخية وقدامى المحاربين الذين خاضوا المعارك تحت قيادة عثمان أرطغرل ومن قبله والده أرطغرل. وانضم إليه أيضاً جماعة «حاجيات روم» أي «حجاج أرض الروم» وهي جماعة معينة بالعلم الشرعي وتفقيه المسلمين بأمور الدين، وكان لها هدف جانبي يتمثل بمعاونة المجاهدين خصوصاً في القتال. وفي غضون ذلك أعاد الإمبراطور البيزنطي أندرو نيقوس الثاني حشد جيوشه لقتال المسلمين بعد أن فشل ولده ميخائيل في دفعهم عن نيقوميدية، فأرسل بضعة سرايا تضم بضع فرق قوامها 2,000 رجل «نصفهم تقريباً من الألانيون المرتزقة» بقيادة «جرجس موزالون» فعبر بهم مضيق البوسفور حتى وصل سهل بافيوس على تخوم المدينة. تقابل الجمعان في السهل سالف الذكر يوم 1 ذو الحجة 701هـ الموافق فيه 27 تموز «يوليو» 1302م، وكان العثمانيون قد حشدوا جيشا قدر بحوالي 5,000 فارس تحت إمرة عثمان نفسه وسرعان ما التحم الجيشان فأنكسر الخط الأمامي البيزنطي وانهزمت مقدمة الجيش فتراجع موزالون بجنوده للاحتماء داخل نيقوميدية، وكان لهذه المعركة أثر بالغ في التاريخ الإسلامي عموماً والعثماني خصوصاً إذا اعتبر الكثير من المؤرخين أن النصر العثماني في هذا اليوم يشكل ولادة الدولة العثمانية الفعلية. ويعلل البروفيسور خليل إينالجك ذلك بقوله: «أن تلك المعركة منحت الإمارة العثمانية خصائص

وسمات الدولة المستقلة الفعلية القابلة للحياة وأثبتت لجيرانها إثباتاً قاطعاً بأن جيوشها قادرة على الغزو وإلحاق الهزيمة بأكبر الأعداء والتصدي لهم. كما أتاح هذا النصر لعثمان أن يسيطر بعد حين على مدينتي إزنيق ونيقيه بالإضافة إلى مدينة بورصة».

أقدم عثمان بعد انتصاره على إقطاع أقاربه وقادة جيشه الأراضي المفتوحة، مكرساً بذلك الهيمنة الإسلامية على الأراضي الجديدة ومنهياً العهد الرومي فيها. فأعطى إسكى شهر لأخيه «كندز بك» وقره جه حصار لابنه «أورخان» ويار حصار لحسن ألب وإينه كول لطور غود ألب، وفي الوقت نفسه نزح قسم كبير من الروم عن ثغور آسيا الصغرى إلى القسطنطينية وما تبقى بأيدي الإمبراطورية من بلاد في أوروبا بعد أن أعطاهم العثمانيون الأمان وخيروهم بين البقاء والعيش في ظل الدولة الإسلامية التليدة أو الالتحاق بإخوانهم، ففضل قسم كبير النزوح وبقي قسم آخر مما رفع عدد الرعايا الروم القاطنين في ظل الراية العثمانية. شعر الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني بضغط الانتشار العثماني وتوجس خطراً لما رأى التغيير الديمغرافي في الأناضول يقع تحت ناظريه دون أن يتمكن من فعل شيء، فقام ليوقف اندفاع العثمانيين، ولما فشل في حربه المباشرة معهم وكان عليه الاهتمام بمشكلة البلقانية كذلك، رأى أن أفضل وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه هي التحالف مع المغول الذين يسيطرون على وسط وشرقي الأناضول فأرسل إلى الإلخان محمود غازان يعرض عليه التقارب الأسري بالزواج وقيام تحالف بين الدوليتين الإلخانية والبيزنطية. وفي الحقيقة فإن المغول كانوا في تلك الفترة

يعيشون مرحلة من التوتر العالي بينهم وبين المماليك في مصر والشام وقد طغت علاقاتهم المتوترة هذه على علاقاتهم بالبيزنطيين، فقد كان غازان يعد العدة ليغزو دمشق وسائر الشام مرة أخرى بعد غزوته الأولى سنة 699هـ الموافقة لسنة 1299م التي هلك فيها الكثير من أهل الشام، وارتكبت فيها المجازر بعد أن هزم الجيش المملوكي هزيمة نكراء في معركة وادي الخزندار قرب حمص، وكان المماليك يعدون العدة للثأر من المغول وغسل عار هزيمتهم السابقة. وفي 2 رمضان 702هـ الموافق 20 نيسان «أبريل» 1303م، اشتبك المغول والمماليك في معركة طاحنة على تخوم دمشق عرفت بمعركة شقحب أو معركة مرج الصفر. انتصر فيها المماليك، وهزم المغول هزيمة كبيرة. كان لهذه الهزيمة أثر كبير على الأوساط السياسية والقيادية المغولية، فقد أثنت غازان عن أي موضوع آخر. وقيل أنه اغتم غماً عظيماً حتى مرض وسال الدم من أنفه، وغضب على قادة جيوشه وأمر بإعدام بعضهم وإذلال الآخرين. ولم يعش بعد ذلك طويلاً فتوفى يوم 6 شوال 703هـ الموافق 11 أيار «مايو» 1304م الأمر الذي قضى على أي أمل في تحالف مغولي بيزنطي وأتاح للعثمانيين الاستمرار في عمليات الفتح.

فتح يني شهر وما حولها:-

حول عثمان أنظاره نحو حدود إمارته الجنوبية بعد أن استتب له الأمر شمالاً ووصل إلى البحر الأسود وبحر مرمرة وهزم جيوش الإمبراطورية البيزنطية واطمأن إلى عدم قدرتها على مقارعته قريباً فهاجم البلدات والقرى والحصون

الرومية المحيطة بمدينة «يني شهر» تمهيداً لفتح هذه المدينة فأرسل حملة كبيرة إلى قلعة «يوند حصار» ففتحها وضمها إلى أملاكه، ثم انقض على يني شهر ودخلها منتصراً واتخذها عاصمة له مؤقتاً. وعمل على تحصينها وتقوية أسوارها ثم راح يرسل الحملات ضد المدن البيزنطية ففتح قلاعاً عدة منها: لفكه وأق حصار وقوج حصار وحصن كته وحصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا وحصن تكرر بيكاري، وقلعة مرمرة جق وقلعة كوبري حصار والحقيقة أن فتح القلاع سالفة الذكر رمى إلى ضرب حزام أمني على يني شهر فأحاطها عثمان بذلك بسلسلة من الحصون الأمامية لدرء أي خطر عنها. كما فتح جزيرة كالوليمني الواقعة على بحر مرمرة على مقربة من خليج مودانيا. الأمر الذي أدى إلى سيطرة العثمانيين على الطريق المائي الذي يربط بورصة بالقسطنطينية، واستولى على قلعة تربكاكا الواقعة بين بورصة وإزنيق والتي تشرف على طريق المواصلات بين هذه الأخيرة وأزميد فأطل العثمانيون بذلك على البوسفور. أقلقت الفتوحات العثمانية صاحب بورصة البيزنطي فجمع قواته وتحالف مع أمراء «أترانوس» و «مادنوس» و «تكه» و «كستل» وساروا للقاء عثمان أرطغرل فالتحموا معه في معركة سميت «دينباز» أو «ديمباز» انتصر فيها العثمانيون وتمكنوا من فتح «كستل» و «مادنوس» وقتل أميريهما في المعركة. كما أسر أمير كته وتضاربت الروايات حول مصيره فشارت إحدى الروايات أنه أعدم أمام قلعته فاستسلمت حاميتها للعثمانيين، بالمقابل أشارت رواية أخرى أنه فر من ساحة المعركة والتجأ إلى «أولو باد» فلحق به العثمانيون وضربوا

الحصار عليها، وأيقن أميرها أن لا قدرة له على قتال العثمانيين فاستسلم لهم وأبرم مع عثمان أول معاهدة عسكرية في تاريخ الدولة العثمانية سلم بموجبها القلعة بشرط ألا يمر من فوق الجسر الموجود أمام البلدة إلى داخلها أي عثماني مسلم فأجابه عثمان إلى طلبه. تشير إحدى الروايات أيضاً إلى أن عثمان حمل خلال هذه الفترة على جزيرة رودس لقتال فرسان القديس يوحنا الذين تمركزوا بها بعد نهاية الحروب الصليبية، وأخذوا يغيرون على الشواطئ الإسلامية ويعتدون على سفن المسلمين التجارية وأن لم يوفق في فتحها على أن المصادر العثمانية لا تذكر شئ عن ذلك.

فتح بورصة:-

ركز عثمان جهوده بعد ذلك على المدن الكبيرة المعزولة ورأى أن يبدأ بفتح مدينة بورصة فبني بالقرب منها قلعتين تشرفان عليها وتحيطان بها. وفي إحدى الروايات «ثلاثة حصون»، إحداهما في «قابلجة» والثانية على سفح جبل أولو طاغ، وعهد بالقلعة الأولى إلى أق تيمور والثانية إلى أحد أمرائه وهو «بالا بان» أو «بالابا نجق بك» استمر الحصار العثماني لبورصة ما بين 10 و 11 سنة ويرجع طول الحصار إلى عدم امتلاك العثمانيين أية أدوات حصار في تلك الفترة من تاريخهم كما أن المدينة نفسها كانت حصينة ومنيعة إذ حمتها قلعة يبلغ طولها 3400متر تحتوي على 14 برج مراقبة و6 أبواب ضخمة وكان هناك سورين سميكين في المنطقة الواقعة تحت جبل أولو طاغ. وأثناء

استمرار الحصار قام عثمان وقادته بتطهير جوار الإمارة من بقايا الحصون الرومية ففتحوها الواحد تلو الأخرى. ودخل بعض قادة تلك الحصون مع حامياتهم في خدمة عثمان، وأسلم البعض منهم، وفي تلك الفترة أصيب عثمان بداء النقطة «الصرع» فبدا واضحاً أنه لم يعد قادراً على قيادة حصار المدينة بنفسه، فعهد إلى أبنه أورخان باستكمال الأمر، واعتزل هو الخروج مع الجيوش ولازم دياره. واستمر حصار أورخان للمدينة دون أي قتال أو حرب، لكنه تابع عزلها عن محيطها ففتح مودانيا قاطعاً صلة المدينة بالبحر، ثم فتح بلدة «برونتكوس» في الساحل الجنوبي لأزميد، وغير اسمها إلى «قره مرسل» تيمناً باسم فاتحها «قره مرسل بك» كما فتح بلدة «أدرانوس» أو «أدرنوس» الواقعة جنوب بورصة على قمة جبل أناضولي داغ، التي وصفت بأنها مفتاح المدينة، وسميت «أورخان ألى». ضيق العثمانيون الحصار على المدينة حتى دب اليأس في قلب حاكمها وحاميتها، وأيقن الإمبراطور البيزنطي أن سقوطها في أيدي المسلمين مسألة وقت لا أكثر فاتخذ قراراً صعباً وأمر عامله عليها بإخلائها ففعل وانسحبت الحامية البيزنطية من المدينة ودخلها أورخان يوم 2 جمادى الأولى 726هـ الموافق فيه 6 نيسان «أبريل» 1326م، ولم يتعرض لأهلها بسوء بعد أن أقروا بالسيادة العثمانية وتعهدوا بدفع الجزية.

واستسلم صاحب المدينة المدعو «أقرينوس» إلى أورخان ثم أشهر أسلامه أمامه وبايع أباه عثمان ودخل في طاعته فأعطى لقب «بك» إكراماً له وتقديراً لما أبداه من شجاعة وصبر خلال الحصار الطويل وأصبح من قادة الدولة

العثمانية البارزين فيما بعد، وتأثر به عدد آخر من قادة الروم الذين بقوا في المدينة وحصونها المجاورة، فأشهروا إسلامهم وانضموا تحت لواء العثمانيين وبهذا فتحت بورصة بعد طول انتظار وأسرع أورخان عائداً إلى سكود؛ لينقل الخبر إلى والده.

وفاة عثمان أرطغرل

كان عثمان أرطغرل يعاني من داء المفاصل أو النقرس إلى جانب الصرع الذي أصيب به في سنواته الأخيرة، ويرجح أن وفاته جاءت نتيجة للنقرس. ومما يؤكد ذلك ما ذكره عاشق باشا زاده في مؤلفه عندما تحدث عن الفترة الأخيرة من حياة عثمان الأول فقال: «كان ثمة عطب في قدم عثمان وكان يتألم منها» وكان الكاتب نفسه قد استعمل التعبير ذاته عند حديثه عن وفاة السلطان محمد الفاتح فقال: «سبب وفاته علة في قدمه». ومن المعروف أن النقرس كان مرضاً وراثياً في الأسرة العثمانية، وعانى منه الكثير من السلاطين. ولما بلغ أورخان سكود استدعى على الفور إلى والده فوجده في حالة النزاع ولم يلبث أن أسلم الروح بعد أن أوصى بالملك من بعده لأورخان، وهو ثاني أولاده بعد أن رآه أفضل وأكثر تهيئاً لزعامة الإمارة وقيادة الدولة من أخيه الأكبر علاء الدين، الذي اتصف بالورع الديني وميله إلى العزلة.

واختلف المؤرخون في تحديد موعد وفاة عثمان فقيل أنه توفي يوم 21 رمضان 726هـ الموافق فيه 21 أب «أغسطس» 1326م، وله من العمر سبعين سنة وقال المؤرخ العثماني روحي جلبي الذي عاش خلال القرن الخامس عشر الميلادي

ودون تاريخ الدولة العثمانية حتى سنة 1481م في كتابه حامل عنوان «تواريخ آل عثمان أن وفاة عثمان الغازي كانت سنة 1320م ووفقاً للمؤرخ أوروج بن عادل الذي عاش في عهد محمد الفاتح وبايزيد الثاني حتى سنة 1502م فإن عثمان توفي في سنة 1327م، ويذكر المؤرخ التركي المعاصر نجدت سقا أوغلو أنه على الرغم من عدم وجود وثائق تذكر اسم عثمان بعد سنة 1320م، فإن هناك وثائق تؤكد تولي أورخان الأمارة في سنة 1324م واعتماداً على ذلك فإن وفاة عثمان غازي تكون قد وقعت في ذات السنة سالفة الذكر وفق هذا الرأي. من المؤكد أن وفاة عثمان كانت بعد وفاة حميه الشيخ «إده بالي» بثلاثة أو أربعة شهور، وبعد وفاة زوجته مال خاتون بشهرين. ومن المعروف أنه دفنهما بيديه في بيله جك وعندما وافته المنية دفن في سكود بداية ثم أمر السلطان أورخان بنقل جثمانه إلى بورصة التي اتخذها عاصمة له ودفنه فيها، وقبره كائن اليوم في حي «طونجانة» ويرجع سبب نقل الجثمان إلى وصية عثمان التي كتبها قبل مماته: «يا بني عندما أموت ضعني تحت تلك القبة الفضية في بورصة». ولكن قبره الحالي يعود إلى عهد السلطان عبد العزيز فقد تهدم القبر الأول تماماً في زلزال شديد ضرب المنطقة سنة 1855م، فأعاد السلطان سالف الذكر بناءه كما أمر السلطان عبد الحميد الثاني ببناء مقام في سكود حيث دفن عثمان للمرة الأولى.

وصيته:-

تنص المصادر العثمانية أن عثماناً ترك وصية مكتوبة لولده أورخان يوصيه

فيها بإكمال مسيرة الغزو والجهاد ضد الروم وأن يلتزم بتعاليم الشريعة الإسلامية ويلازم العلماء ويعدل مع الرعية ويخلص إلى الإسلام ورسالته كما تضمنت وصية بعض النصائح إلى سائر أبناءه وإلى رفاق دربه الذين شهدوا معه كل الغزوات أو معظمها أما نص الوصية فهو: «بسم الله الرحمن الرحيم

يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً. يا بني: أحط من أعطاك بالإعزاز وأنعم على الجنود ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني: أنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق فتحدث مرضاة الله جل جلاله. يا بني: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا ونموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل.أعلم يا بني أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها. يا بني: إنني انتقل إلى جوار ربي وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية مجاهداً في سبيل الله لنشر دين الإسلام يا بني: أوصيك بعلماء الأمة أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم وأنزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخير يا بني: إياك أن تفعل أمراً لا يرضي الله. وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة فإنهم سيدلونك على الخير، وأعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وإننا لسنا طلاب جاه ودنيا وصيتي لأبنائي وأصدقائي أديموا علو الدين

الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله. أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد. أخدموا الإسلام دائماً؛ لأن الله قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم «صلى الله عليه وسلم» يوم المحشر. يا بني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب أجلي بأمر الله جل جلاله، أسلمك هذه الدولة واستودعك المولى. أعدل في جميع شؤونك».

إرث عثمان الأول:-

يعتبر عثمان الأول مؤسس السلالة العثمانية بكل المقاييس، فقد تحدر منه بشكل مباشر ست وثلاثون سلطاناً تربعوا على عرش دولته منذ أن استقل بها وحتى سقوطها سنة 1918م. بسبب انهزامها في الحرب العالمية الأولى. ويعتبر عثمان أول سلاطين هذه السلالة على الرغم من كونه لم يحمل خلال حياته سوى لقب «بك» أي «أمير». وإنه كان معروفاً أنه لقب بألقاب أخرى، كما تشير إحدى الوقفيات المدونة باللغة الفارسية العائدة لسنة 1324م. التي نصت على أنه لقب بـ «محي الدين» و «فخر الدين». تتوزع ذرية عثمان الأول اليوم في عدة بلدان أوروبية وعربية. بعد أن طردت الأسرة من تركيا سنة 1924م بعيد إعلان قيام الجمهورية على يد مصطفى كمال أتاتورك. عاد قسم كبير من العائلة إلى تركيا بعد أن سمحت الحكومة للأميرات العثمانيات بالرجوع سنة

1951م والأمراء سنة 1973م بينما بقي قسم منهم في البلدان التي التجأ إليها أجدادهم مثل إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة ومصر والسعودية وغيرها، حيث تلقبوا بلقب «عثمان أوغلو» «بالتركية: Osmanoglu » ومن أعلامهم في العصر الحديث: عمر عبد المجيد أفندي عثمان أوغلو المولود في مدينة الإسكندرية بمصر يوم 10 جمادى الأولى 1360هـ الموافق فيه 4 حزيران «يوليو» 1941م وابنه محمود نامق عثمان أوغلو المولود في لندن يوم 16 ربيع الآخرة 1395هـ الموافق فيه 27 نيسان «أبريل» 1975م. ومنهم أيضاً الأميرة عائشة كلناد سلطان عثمان أوغلو المولودة في مدينة هنلي في أكسفورد شير بإنكلترا يوم 21 ذي القعدة 1390هـ الموافق فيه 17 كانون الثاني «يناير» 1971م وأولادها الخمسة.

زوجاته وأولاده:-

تزوج عثمان أرطغرل «مال خاتون» ابنة الشيخ «إده بالي» حوالي سنة 1280م فولدت له أورخان وتشير بعد المصادر أن تزوج أيضاً بامرأة أخرى تدعى «رابعة بالا خاتون» وهي والدة ابنه البكر علاء الدين باشا. ويلاحظ أن بعض المؤرخين جعل لعثمان زوجة واحدة فقط بأسماء مختلفة فأوروج بن عادل قال أن زوجة عثمان تدعى «رابعة» وجعلها ابنة الشيخ «إده بالي» بينما قال عاشق باشا زاده أنها تدعى «مال خاتون» وهو الرأي السائد غالباً. كما جعلها آخرون ابنة أحد الأمراء ويدعى «عمر عبد العزيز بك» ويعتبر بعض المؤرخين أن وجود اسمين مختلفين

لامرأتين مفاده أن عثمان كان متزوجاً باثنين على الأقل. أما الأولاد فقد أنجب عثمان ثمانية: سبعة أبناء وبنت واحدة وهم: أورخان بك وباظارلي بك وجوبان بك وحميد بك وعلاء الدين باشا ومالك بك وصاوجي بك وفاطمة خاتون.

سيف عثمان:-

ترك عثمان ورائه سيفه الخاص الذي اشتهر باسم «سيف عثمان» «بالتركية العثمانية: تقليدي سيف، فورثه عنه ابنه أورخان ثم حفيده مراد واستمر السلاطين من بعده يتناقلوه حتى أصبح تقليد هذا السيف يمثل الجزء الأبرز في حفل تتويج السلاطين ومبايعتهم بالخلافة الإسلامية وأصبح يرمز إلى انتقال ملك آل عثمان من سلطان إلى آخر. تشير المراجع إلى أن عثماناً قلد هذا السيف من قبل معلمه وحميه الشيخ «إده بالي»؛ ليكون «سيف الإسلام المسلول على الكفار» وتولى شيخ الدراويش المولوية في قونية، وكان بمثابة الأمام الأكبر حينها، تزنير عثمان بالسيف وحزامه. كان السلاطين العثمانيون يتقلدون السيف بعد حوالي أسبوعين من تربعهم على العرش، وكان حفل التقليد هذا أقرب ما يكون إلى احتفالات التتويج الملكية والإمبراطورية في أوروبا الغربية، وكان يتم في جامع أبي أيوب الأنصاري بالأستانة. أما من كان يقلد السلطان سيف عثمان فكان غالباً شيخ الإسلام أو شريف قونية والأخير كان شيخ الدراويش المولوية الذي كان يستدعى إلى الأستانة خصيصاً لهذا الغرض.

صفاته وخصائصه:-

وفق تصوير مؤرخ القصر العثماني يحيى بستان زاده بعد قرون من وفاة عثمان فإن الأخير أي عثمان أرطغرل كان رجلاً طويل القامة وأبيض البشرة وكستنائي في الحاجبين وبحسب تاريخ كبير الفلكيين، كان أسمر البشرة وعاقد الحاجبين ومستدير الوجه وعريض المنكبين وتصل يداه إلى ركبتيه عند وقوفه. ويستنتج من هذا الوصف أن ساقي عثمان الأول كانت قصيرتين أو أن ذراعيه كانتا أطول من المعتاد وقد عاش نموذج البنية الجسدية هذا ما يزيد على ستة قرون وصولاً إلى الخليفة عبد المجيد الثاني.

متاعه:-

يعرف عن عثمان الأول أنه عاش حياة بسيطة بعيدة عن البذخ واللهو والسفاهة. وقد عاش من عائد إنتاج أغنامه الخاصة «حليب ولبن وجبن.. الخ» وكان يعتبر أن الأموال والغنائم من حق الناس أجمعين وليست حكراً على الأمراء. فلما اصطحبه قادة جيشه إلى سوق مدينة فتحوها لم يستطع تقبل فكرة أن الضريبة من حق البكوات وحدهم، فرفض الحصول عليها على الرغم من أنها كانت تمثل دخلاً دسماً بالنسبة إليه، واعتبر أن هذا العائد أما أن يوزع على جميع الناس بالحق أو لا يأخذ أبداً. ويشير بعض المؤرخين إلى أن هذه القصة تعكس مقدار حساسية عثمان تجاه الأمور التي ليست من حقه، فلم يعرف عنه أنه اغتصب شئ بالقوة طيلة حياته، وهي أيضاً تعكس مدى تأثره بالتعاليم

الإسلامية وبعض العادات والتقاليد والخصوصيات التركية البدوية القديمة التي كانت لا تسمح بالاستئثار بالضروريات بل تعتبرها من حق القبيلة كلها. ومما يدل على زهد عثمان وترفعه عن الماديات كان عدم العثور على أي ذهب أو فضة بين ممتلكاته بعد وفاته، وبحسب المعلومات الواردة في المصادر التاريخية فإن ما وجد في تركته هو: ثوب جديد نسبياً يدعى «صرطاق تكلسي» وخرج يعلق على جنب الحصان يدعى «يانجغى» ووعاء ملح وحمالة ملعقة خشبية وزوج من أحذية طويلة الساق وعدة خيول مطهمة وثلاثة أغنام يعلفها من أجل إكرام ضيوفه ولفة من قماش الدنيزلي ودرع للحصان ورايات حمراء من منسوجات أق شهر وسيف وكنانة ورمح وما شابه ذلك.

أما بالنسبة لمتع عثمان الأول الخاصة فليس هناك من معلومات ملموسة حولها، ولكن الموثق وجود سبحة خشبية كبيرة الحبات يقال أنه كان يستخدمها وطبل بقيا محفوظين في مزاره الكائن في مدينة بورصة وبقيا يشاهدان حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري «ما بين سنتي 1688 و 1784م» وهما هديتان أرسلهما له السلطان السلجوقي. ولكن السبحة الخشبية والطبل احترقا في حريق اندلع سنة 1855م جراء الزلزال الشديد الذي ضرب المنطقة وعرف محلياً باسم «القيامة الصغرى» لشدة هوله، ولم يبقيا حتى اليوم. يعرف أنه عثماناً كان يرتدي ملابس بسيطة قريبة في شكلها وتصميمها إلى ملابس الدراويش والمتصوفين. ولكن الرسامين العثمانيين والأوروبيين ألبسوا هذا السلطان ما كان سلاطين العثمانيين يلبسون في العصر الكلاسيكي للدولة،

قبيل إصلاحات السلطان محمود الثاني فرسمه «قسطنطين قابضاغلي» في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ضمن سلسلة اللوحات النصفية للسلاطين مرتدياً ألبسه كلاسيكية لا يمكن تمييزها عن ألبسة السلطان سليمان القانوني ومراد الثالث وكذلك فعل جون يونك في سلسلة لوحاته المسماة «سلسلة صور أباطرة تركيا» المنقولة عن المنمنمات العثمانية مع أن العثمانيين لم يستخدموا هذا النوع من الألبسة المزركشة، بل حتى سادة الأناضول لم يلبسوها إلا بعد أن استقروا في القصور في القرن الرابع عشر الميلادي وحسب بعض المصادر كان عثمان يعتمر قبعة طويلة مصنوعة من نسيج أحمر يدعى «خراساني» ملفوفة بقماش أبيض رقيق عليه نوع من الخيوط المجدولة. وهذا نوع من اللفات يشبه ما كان النخبة في مجتمع الأويغور يعتمرونه في تركستان الشرقية. وكانت جبته طويلة وذات ياقة حمراء عريضة وبحسب نص قديم، فإن عثمان لم يكن يرتدي ملابسه مرتين لشدة تصدقه على الفقراء والأرامل بشكل خاص الذين لم يكن لديهم ما يسترون به أنفسهم فكان أن نظر أحدهم إلى عباءته أو جلبابه خلعه ووهبه إياه.

شعره:-

وصل الباحثون المعاصرون إلى قصيدة نُسبت إلى عثمان الأول عجت من أولها إلى أخرها بصور البطولة والفروسية والنصح لمخاطبه، وعلى الرغم من الشك بنسب القصيدة لعثمان إلا أن البعض يقول بصحة نسبها اعتماداً على

مقياس غريب وهو: لماذا نسبت هذه القصيدة إليه وليس غيرها من القصائد؟

مبادئه وخصاله:-

كان عثمان ملتزماً بتطبيق العادات والتقاليد التركية القديمة التي احتفظ بها الترك؛ لعدم تعارضها مع الشريعة الإسلامية، ومن تلك العادات عادة قبلية يفتح بموجبها سيد القبيلة بيته للنهب في السادس من أيار «مايو» من كل سنة، وهو اليوم الذي التقى فيه الخضر بالنبي إلياس وفق بعض الروايات أو الأساطير، واعتبر يوماً خيراً تفيض به الخيرات والبركات، وبناء عليه كان سيد القبيلة وزوجته يخرجا من البيت من دون أن يأخذا شيئاً معهما ولو كان دبوساً، فيهجم أفراد القبيلة على البيت بعد خروجهما ويأخذون ما تيسر من متاع. وكانت هذه العادة تسمى «فتح بيت السيد» أو «نهب بيت السيد» وكان عثمان ملتزماً بهذا التقليد فيفتح بيته مرة في السنة للنهب أما سبب اعتبار تلك العادة غير متعارضة مع الشريعة فهو أن سيد القبيلة تنازل طوعاً عن ممتلكاته لأفراد قبيلته؛ ليأخذ منها كل شخص نصيبه المكتوب وقد استلهم الشاعر توفيق فكرت من قضية «نهب بيت السيد» فكرة قصيدته التي يهجو فيها أعضاء حزب الاتحاد والترقي لكثرة نهبهم الدولة.

تتفق المصادر جميعها على أن عثمان الأول كان رجلاً قنوعاً جداً. ومحباً للعطاء وليس الأخذ. ومن عاداته أن كان يهب أصحاب الحاجة كل ما يغنمه في الغزوات. على سبيل المثال، كان يطعم كل من يكون في بيته وقت العصر،

وكان عزف الموسيقى يسبق تقديم الطعام، إذ أن قبائل الترك كانت تفضل سماع الموسيقى قبل تناول الطعام وليس خلاله كما كانت عادات الأوروبيين، واستمر العثمانيون على هذه الخصلة طيلة تاريخهم. فقد كان عثمان يأمر فرقة «المهتر» التي أرسلها إليه السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث باعتبارها إحدى تقاليد البكوية بمباشرة العزف، وكانت تتوقف عن العزف عند البدء بتقديم الطعام. وكانت العادة السائدة أن كل من حضر المائدة يجلس إليها ليأكل دون تمييز بين غني وفقير، وتفيد المصادر أن عثماناً اتصف بالتسامح الكبير مع غير المسلمين على الرغم من حماسته الدينية. فاستقطب بذلك الكثير من الروم الذين اعتنقوا الإسلام على يديه، ومن أبرز القصص التي تنص على ذلك أن عثمان لما فتح «قره جه حصار» حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فسأله البيزنطي كيف يحكم لصالح شخص من غير دينه وقومه فأجابه عثمان بآية من سورة النساء، فكان هذا سبباً في إسلام البيزنطي وبعض قومه. أضف إلى ذلك أن عثمان أرطغرل اشتهر بتعامله اللين مع الأهالي المسيحيين للبلدات والقلاع التي فتحها بما فيهم جنود الحاميات حيث كان يأمر بإعتاقهم لو ثبت أخلاصهم، كما تولى رعاية الأرامل والأيتام الروم ومنحهم العطايا وغنائم غزواته كما كان يفعل مع أبناء قبيلته وأظهر رفقاً بكبار السن خصوصاً مما كان دافعاً لكثير منهم على اعتناق الإسلام.

من جهة أخرى يتفق المؤرخون والباحثون أن عثماناً تمتع بعبقرية إستراتيجية وبعد نظر عميق حيث وجه فتوحاته إلى البيزنط باعتبار أن كل

فتح يناله فهم سيزيد من قوته وسمعته في الأوساط الرومية ومن شعبيته في الأوساط الإسلامية. كما أنه في نفس الوقت تحاشي بكل جهده التصادم مع جيرانه المسلمين المحيطين به كي لا يقع في اقتتال بين أبناء الدين الواحد من جهة ومن جهة أخرى كي يستثمر كامل طاقاته في حرب الروم. وتمثلت عبقرية عثمان أيضاً في أن وضع أسس دولة استوحى نظمها من السلطنة السلجوقية الرومية سواء فيما يتعلق بالتقاليد أو بالتنظيمات أو بالحضارة الموروثة عن العالم الإسلامي، ويبدو أنه كان ذا شخصية جذابة تغري الآخرين للقيام بخدمته، كما تحلى بالجلد والمثابرة وضبط النفس والهيبة. يقول المؤرخ أحمد رفيق في موسوعته «التاريخ العام الكبير»: «كان عثمان متديناً للغاية وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حباً في السلطة وإنما حباً في نشر الإسلام». ويقول «مصر أوغلو» : «لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله. وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف».

في الثقافة الشعبية:-

ظهرت شخصية عثمان الأول في فيلم «فتح 1453م» الذي يتحدث عن فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح، ولعثمان الأول تمثال شمعي معروض للزوار والسائحين في برج السفير الواقع في منطقة «لاوند»

بأسطنبول، ضمن تماثيل متعددة أخرى لعدد من القادة العالميين والسلاطين العثمانيين، ويحتل عثمان مكانة بارزة لدى الكثير من المؤرخين والزعماء الروحيين المسلمين خصوصاً، وهناك رأى سائد مفاده أن ولادته في ذات اليوم الذي دمرت فيه بغداد وسقطت الخلافة الإسلامية لم يكن محض صدفة، بل بتلطف إلهي. ومن أصحاب هذا الرأي: كبير الفلكيين الشيخ أحمد صاحب كتاب «صحائف الأخبار في وقائع الآثار» وشيخ الإسلام سعد الدين أفندي والمؤرخ التركي مصطفى أرمغان الذي اعتبر أن ولادة عثمان وتأسيسه لدولة جديدة حملت راية الإسلام ودافعت عنه طيلة 600 سنة ووحدت العالم الإسلامي بعد تشرذمه حالت دون أن يعيش هذا العالم الذل والتجزئة التي عاشها سنة 1918م بعد أن انكسرت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى.

يذهب بعض المؤرخين ورجال الدين المسلمين ومفسري الرؤى إلى الدفاع عن حلم عثمان باعتباره من الأمور التي يمكن أن تقع وحججهم في ذلك أن الرؤيا تلك مذكورة في إحدى أمهات الكتب وهو «الشقائق العثمانية في علماء الدولة العثمانية» وقد تناقلتها المصادر المتعاقبة عبر القرون، كما قالوا أن هذه الرؤية لا تخالف العقل، ولا النقل؛ لأن عثمان الأول كان وفق ما نصت عليه المصادر رجلاً نقياً ورعاً ووفقاً لتفسير بعض العلماء المسلمين فإن الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم هي إحدى ثمار تقوى الإنسان ومرجعهم في ذلك الحديث النبوي: «الرؤيا الصالحة من الله» و «لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له».

الفصل الثالث

الجوانب المشرقة
في حياة عثمان بن أرطغرل

جوانب مشرقة في حياة عثمان أرطغرل

أهم الصفات القيادية في عثمان الأول:

عندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة في شخصية كقائد عسكري ورجل سياسي ومن أهم هذه الصفات:

الشجاعة: ـ

عندما تنادى أمراء النصارى في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون في عام 700هـ/ 1301م؛ لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية، وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين.

الحكمة: ـ

بعد ما تولى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة وعدة قلاع حصينة

ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم، وسمح له بسك العملة باسمه مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحته.

الإخلاص: ـ

عندما لمس سكان الأراضي القريبة من إمارة بني عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين.

الصبر: ـ

وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان. ففتح في سنة 707 هـ حصن كته وحصن لفكه وحصن أق حصار، وحصن قوج حصار، وفي سنة 712هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طراقلوا وحصن تكرر بيكاري وغيرها وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة في عام 717 هـ/ 1317م، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات، ولم يكن فتح بروسة من الأمور السهلة بل كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته حيث حدثت بينه وبين قائدها فيها أفرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان

الجاذبية الإيمانية: ـ

وتظهر هذه الصفة عندما احتك به أفرينوس قائد بروسة واعتنق الإسلام

أعطاه السلطان عثمان لقب «بك» وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم، بل أن كثيراً من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة «غزيا روم» أي غزاة الروم، وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات في جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للإسلام والتزامها بكل ما جاء به الإسلام من نظام وجماعة «الإخيان» «أي الإخوان» وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة، وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذي سخروا أموالهم للخدمات الإسلامية مثل: إقامة المساجد والتكايا و «الخانات» الفنادق وكانت لهم في الدولة مكانة عالية ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا في نشر الثقافة الإسلامية وحببوا الناس في التمسك بالدين وجماعة «حاجيات الروم» أي حجاج أرض الروم وكانت جماعة على فقه بالإسلام ومعرفة دقيقة لتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً والمجاهدين خصوصاً وغير ذلك من الجماعات.

عدله: ـ

تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام 684هـ / 1285م، وأن عثمان حكم

لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك؟ فأجابه عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك والله الذي نعبده، يقول لنا: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»، وكان هذا العدل الكريم سبباً في اهتداء الرجل وقومه إلى الإسلام.

إن عثمان الأول استخدم العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر، أو الطغيان أو البطش وإنما عاملهم بهذا الدستور الرباني:

والعمل بهذا الدستور الرباني يدل على إيمان وتقوى وفطنة وذكاء وعلى عدل وبر ورحمة.

الوفاء: ـ

كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود فعندما اشترط أمير قلعة أولو باد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك، وكذلك من جاء بعده قال تعالى: «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلاً».

التجرد لله في فتوحاته: ـ

فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه، ولذلك وصفه المؤرخ أحمد

رفيق في موسوعته «التاريخ العام الكبير» بأنه «كان عثمان متديناً للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس، وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حباً في السلطة وإنما حباً في نشر الإسلام». ويقول مصر أوغلو: «لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف».

هذه بعض صفات عثمان الأول والتي كانت ثمرات طبيعية لإيمان بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان وحبه العميق للجهاد في سبيل الله والدعوة إليه، ولذلك كان عثمان في فتوحاته يطلب من أمراء الروم في منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور: هي الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب وبذلك أسلم بعضهم وانضم إليه البعض الآخر وقبلوا دفع الجزية أما ما عداهم فقد شن عليهم جهاداً لا هوادة فيه فانتصر عليهم وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته، لقد كانت شخصية عثمان متزنة مؤثرة خلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر.

ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده عثمان فجعل له مكانة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة

الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة، ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية، لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة إلى الله فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان مثلما كان معادياً لأهل الكفران.

الدستور الذي سار عليه العثمانيون

كانت حياة الأمير عثمان أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية جهاداً ودعوة في سبيل الله وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد يقول عثمان في وصيته: «يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً. يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز وأنعم على الجنود ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق فتحدث مرضات الله جل جلاله.

يا بني: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت وهذا يا ولدي ما أنت له أهل».

وفي كتاب «التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية» تجد رواية أخرى للوصية: «أعلم يا بني أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض

المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها».

وفي كتاب مأساة بني عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: «يا بني: إنني انتقل إلى جوار ربي وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية مجاهداً في سبيل الله لنشر دين الإسلام.

يا بني: أوصيك بعلماء الأمة، آدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم، وأنزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بالخير.

يا بني: إياك أن تفعل أمراً لا يرضي الله عز وجل وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة فإنهم سيدلونك على الخير.

وأعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله وإننا لسنا طلاب جاه ودنيا.

وفي التاريخ العثماني المصور عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: «وصيتي لأبنائي وأصدقائي أديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد، أخدموا الإسلام دائماً؛ لأن الله عز وجل قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.

يا بني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب أجلي بأمر الله جل جلاله أسلمك هذه الدولة واستودعك المولى عز وجل، أعدل في جميع شؤونك..»

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالجيش وبالمؤسسات العسكرية وبالعلماء واحترامهم وبالجهاد الذي أوصل فتوحاً إلى أقصى مكان وصلت إليه راية الجيش المسلم وبالإمارة وبالحضارة.

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولة العثمانية من خلال تلك الوصية: ـ

1 ـ «يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين»: ـ

إنها دعوة إلى الالتزام بشرع الله في كل صغيرة وكبيرة، وبحيث يكون حكم الله وأمره مهيمناً على كل شيء قال تعالى:

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ «يوسف: 40».

يعني: «ما الحكم الحق والربوبية والعقائد والمعاملات إلا لله وحده يوصيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه ولا بعقله واستدلاله ولا باجتهاده واستحسانه فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة» لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى قال سبحانه:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾

«النساء: 105».

فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزال آل عثمان يوصي ابنه كحاكم من بعده لدولة إسلامية أن يتقيد بحكم الله في إعماله؛ لأنه يعلم أن أقامة حكم الله من خلال الحاكم المسلم عهد وميثاق ذكره الله تعالى:

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ «المائدة: 7».

فهذا تذكير من الله تعالى لعباده المؤمنين بنعمته عليهم في الشرع الذي شرعه لهم في هذا الدين العظيم المرسل به الرسول الكريم، وأخذ للعهد والميثاق عليهم في متابعته ونصرته وإبلاغه والقيام به، وهذا مقتضى البيعة التي كان الصحابة يبايعون عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، كما أن الإخلال بعهد الحاكمية جاهلية قال تعالى:

﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾

«سورة المائدة : 50»

ففي الآية الكريمة إنكار وتوبيخ وتعجب من حال من يتولى عن حكم الله وهو يبغي حكم غيره والآية تعبير لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحي.

أن تحقيق الحاكمية، تمكين للعبودية وقيام بالغاية التي من أجلها خلق

الإنسان والجان، قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ «الذاريات: 56».

أي ليطيعوه وحده لا شريك له، وإن المفهوم الواسع الرحيب للعبادة ليشمل علائق وأعمالاً كثيرة منها ما يمكن أن يقيمه الأفراد ومنها ما لا يمكن تحقيق على الوجه الأكمل إلا في ظل دولة الإسلام، وهذه المعاني الرفيعة كانت واضحة في ذهن المؤسس الأول للدولة العثمانية، ولذلك وحي الأمير أورخان بهذه العبارة المنهجية المسددة «يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين».

وهذا التوجيه من عثمان لابنه كفرد وكرئيس لدولة وفي طياته معنى كون العبادة لها أصلان: ـ

أحدهما: أن لا يعبد إلا الله، الثاني: أن يعبد بما أمر وشرع.

ومما لا شك فيه أن الدولة العثمانية كانت حريصة على حماية هذين الأصلين بمحاربة الشرك في داخلها وعملت على تقليص نفوذه خارجها وكانت حريصة على حماية الشرع ضد من يعاود الاعتداء عليه بابتداع أو تحريف أو تغيير أو تبديل، وكل ذلك من حرص أميرها والعلماء الذين من حوله على تحقيق العبودية لله على الوجه المرضي، وعلى حماية الدين من دخائل وانتحالات المضلين، وبهذا تكون دولة بني عثمان أخذت الصيغة الشرعية. «لقد كانت نشأتها إسلامية خالصة، مشبوبة بإيمان عميق متوجهة إلى أهداف عقائدية».

ثانياً ـ إذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين مؤئلاً: ـ

إن الله تعالى قد شرع نظام الشورى لحكم بالغة، ومقاصد عظيمة، ولما فيها من المصالح الكبيرة والفوائد الجليلة التي تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة، ولذلك أمر عثمان الأول ابنه أن يجعل من العلماء مجلس شورى له في معضلات الأمور في هذا الإرشاد امتثال لأمر الله واقتداء برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

«آل عمران: 159»

قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ «وبهذا النص الجازم» «وشاورهم في الأمر» يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم ـ حتى ومحمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذي يتولاه وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبداء أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه».

وقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

«سورة الشورى: آية: 38»

يقول الأستاذ عبد القادر عوده ـ رحمه الله ـ «الشورى دعائم الإيمان وصفة من الصفات المميزة للمسلمين، سوى الله بينها وبين الصلاة والإنفاق في

قوله: «والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون». فجعل للاستجابة لله نتائج بين لنا أبرزها وأظهرها، وهي إقامة الصلاة والشورى والإنفاق وإذا كانت الشورى من الإيمان، فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى. ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة، وما دامت الشورى صفة لازمة للمسلم فلا يكمل إيمانه إلا بتوفرها، فهي أذن فريضة إسلامية واجبة على الحاكمين والمحكومين، فعلى الحاكم أن يستشير في كل أمور الحكم والإدارة والسياسة والتشريع وكل ما يتعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة العامة وعلى المحكومين أن يشيروا على الحاكم بما يرونه في هذه المسائل كلها سواء استشارهم الحاكم أو لم يستشرهم.

والأحاديث القولية والسنة الفعلية الدالة على وجوب الشورى كثيرة ونكتفي بما ذكرنا خوفاً من الإطالة وفي رواية أن عثمان أمر ابنه بأن ينزل على رأي العلماء في قوله: «وأنزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخير..»، وكان عثمان ـ رحمه الله ـ يرى أن الشورى ملزمة للحاكم وقد ذهب إلى هذا الرأي مجموعة من العلماء المعاصرين منهم العلامة أبو الأعلى المودودى –رحمه الله– : «وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحاكمها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم وإمضاء نظام الحكم بالشورى. يقول تعالى: «وأمرهم شورى بينهم» ، «وشاورهم في الأمر» إن قاعدة: «وأمرهم شورى بينهم» تتطلب بذاتها خمسة أمور: خامسها التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو أكثر فيهم، أما أن يستمع ولي الأمر إلى آراء جميع أهل الشورى ثم

يختار هو بنفسه بحرية تامة، فإن الشورى في هذه الحالة تفقد معناها وقيمتها فالله لم يقل: «تؤخذ آراؤهم ومشورتهم في أمرهم» وإنما قال: «وأمرهم شورى بينهم» يعني أن تسير الأمور بتشاور فيما بينهم، وتطبيق هذا القول الإلهي لا يتم بأخذ الرأي فقط، وإنما من الضروري لتنفيذه وتطبيقه أن تجرى الأمور وفق ما يتقرر بالإجماع أو الأكثرية...

وهكذا نرى الأمير عثمان يسبق كثير من العلماء والمفكرين المعاصرين في ذهابه إلى أن الشورى ملزمة ويأمر بالنزول عند رأي العلماء ولكونهم لا يأمرون إلا بخير.

لقد ساهمت الشورى في بناء الدولة العثمانية وتماسك رعاياه وعززت السلطان السياسي والجهادي والدعوى للدولة وكانت الآراء تتقلب وفقاً لجدارتها وبمقدار انسجامها مع عقيدة الأمة ودستور الدولة، لقد كان الحكام العثمانيون يريدون لحكمهم أن يستمر ولنظام دولتهم أن يستقر، ولذلك حرصوا على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلادهم وجعلوا من الشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية. ولقد تطورت الشورى في الدولة العثمانية بل أصبح لكل إقليم حاكم يطلق عليه باشا وله مجلس الديوان يتشاورون في شؤون الحكم والرعية ولقد شكلت مجالس وعين نواب وممثلون لكل جماعة وأتيحت الفرصة للاختيار وتتطور الأمر حتى وجعل في عهد السلطان محمد الفاتح إلى تشكيل مجلس استشاري لأمور الدولة.

إن إشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها كانت في زمن الدولة العثمانية عرضة للاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى في إدارة شؤون الدولة فكان بالنسبة لهم من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله وإن كان تاريخ الدولة العثمانية لا يخلو من ظهور بعض السلاطين المتسلطين.

ـ يا بني: أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم: ـ

كان عثمان على صلة متينة مع كبار العلماء والفقهاء وكبار الصالحين في عهده وكثيراً ما يجلس الساعات الطوال بين أيديهم يتلقي مواعظهم ويستفيد من علمهم ويشاورهم في أمور الدولة وكان يتردد على المولى الشيخ «إده بالي» القرماني المولد وقد زوجه ابنته بسبب رؤيا: «كان في أحد الأيام يبيت عنده فرأى في المنام قمراً خرج من حضن الشيخ ودخل حضنه، وعند ذلك نبتت شجرة عظيمة سرت أغصانها الآفاق، وتحتها جبال عظيمة تتفجر منها الأنهار والناس ينتفعون بتلك الأشجار لأنفسهم ودوابهم وبساتينهم، فقص هذه الرؤيا على الشيخ فقال: لك البشرى بما نلت مرتبة السلطنة وينتفع بك وبأولادك المسلمون، وإني زوجت لك ابنتي هذه.

لقد حاول بعض الكتاب أن يجعل من تلك الرؤيا أسطورة لا حقيقة لها مع أن هذه الرؤيا ذكرت في كتاب مهم اسمه الشقائق النعمانية في تاريخ الدولة العثمانية وهذا الكتاب أفاد وأجاد في ذكر علماء وفقهاء الدولة لفترات زمنية ممتدة.

إن هذه الرؤيا لا تخالف العقل ولا النقل؛ لأن عثمان الأول رحمه الله كان رجلاً نقياً ورعاً ومن ثمار التقوى الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم، قال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾

«يونس: 62 ـ 64».

والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين، في غير مكان من كتابه وعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «الرؤيا الصالحة من الله» وعنه عليه الصلاة والسلام: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة»، وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس «فقال تلك عاجل بشرى المؤمن». إن عثمان الأول ـ رحمه الله ـ وضع الله له محبة في قلوب المسلمين لجهاده وتقواه وصلاحه.

إن وصية عثمان لابنه باحترام العلماء أصبحت منهجاً سار عليه حكام الدولة العثمانية وهذا يدل على التزام العثمانيين بشرع الله تعالى؛ لأن الشريعة أعطت اعتباراً للعلماء وبنته على أمرين: ـ

(1) أن طاعتهم طاعة لله ـ عز وجل ولرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالتزام أمرهم واجب.

(2) أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها بل هي تبع لطاعة الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم.

والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء في الشريعة كثيرة منها: ـ

الدليل الأول: قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ « النساء: 59»

وقد اختلف المفسرون في أولى الأمر منكم على أقوال فقيل: هم السلاطين وذوو القدرة وقيل: هم أهل العلم.

والدليل الثاني: أن الله ـ سبحانه ـ أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عمَّا أشكل: قال تعالى:

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾«الأنبياء: 7».

«وعموم هذه الآية، فيها مدح أهل العلم، وإن أعلى أنواعه، العلم بالكتاب المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث في ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وإن بذلك يخرج الجاهل من التبعة..».

إن الآيات والأحاديث التي تبين دور العلماء كثيرة ولقد كان العلماء في مسير الدولة العثمانية مرجع للسلاطين عند الفتن والملاحم والمحن وكانت لهم مقدرة عظيمة على حشد الناس تحت لواء الجهاد في سبيل الله تعالى، وإقامة شرعه على الرعية وكانوا لا يسمحون للسلطان أن يتجاوز أحكام الشرع وإلا

ربما هيجوا عليه الناس وعزلوه وكانت أحكام العلماء والفقهاء تستنبط من: ـ

1 ـ القرآن الكريم

قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ «النساء: 105»

فهو المصدر الأول الذي يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التي تتعلق بشؤون الحياة البشرية، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكاماً قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

2 ـ السنة المطهرة

هي المصدر الثاني الذي يستمد من العلماء الأحكام ومن خلالها يوفون الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن ممثلة في قيادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للأمة ومن خلال السنة يمكن التعرف على نوعية المجتمع المثالي الذي ينشده الإسلام.

3 ـ إجماع الأمة

وخاصة الصحابة، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدين، قال تعالى:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥ ﴾ «النساء: 115».

4 ـ مذهب العلماء والمجتهدين

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ «النساء: 83».

والآية دليل على الأخذ بالاجتهاد إذا عدم النص والإجماع، ولأن العلماء في أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كالأنبياء في بني إسرائيل فهم المؤتمنون على نقل العلم والمفوضون في استنباط الأحكام المتجددة في عمومات الشريعة لا لعصمة اختصوا بها فليس في الإسلام كهنوت، ولكن لأهليتهم في أن يسموا، «أهل الذكر» والله تعالى يقول:

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ «النحل: 43».

لقد كان علماء الدولة العثمانية على فهم عميق لروح الشريعة وقواعدها ولهم المقدرة على معالجة ما يستجد من قضايا في ضوء هذا الفهم وكانت لهم القدرة على فهم ضبط المناط في الأحكام وقياس الفروع على الأصول فيها.

ولقد كان المذهب الحنفي له القدح العلى عند علماء الدولة وإن كانوا لا يستغنون عن بقية المذاهب السنية التي كانت لها احترامها عند السلاطين العثمانيين.

لقد حرص علماء الدولة العثمانية على أن يكون نظامها السياسي على عقيدة التوحيد وتطبيق شريعة الله وتقوم على الشورى وأن يقوم نظامها الاقتصادي

على التعامل بالذهب والفضة وعدم التعامل بالربا وعدم الاستغلال والاحتكار وعدم الاتجار بما حرم الله، وأن يقوم نظامها السلوكي والأخلاقي الاجتماعي على أساس عقيدة الإسلام، وأن يقوم نظامها التعليمي والإعلامي على قاعدة من العلوم الشرعية، وأن تقوم علاقتها الدولية على أساس عقيدة الإسلام التي وضعها الله سبحانه وتعالى ـ حيث قال:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

«سورة الممتحنة آية: 8: 9».

لقد كان العلماء والفقهاء في الدولة العثمانية يشرفون على تطبيق شرع الله وإقامة الحدود وتحريم ما حرمه الله، ولا تستحل ما حرم الله. لقد كان معظم سلاطين الدولة يحترمون العلماء ويجلونهم.

4 ـ «أعلم يا بني، إن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أغراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها»: ـ

لقد فهم عثمان الأول ـ رحمه الله ـ أن دين الإسلام، دين دعوة مستمرة لا تتوقف حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض، وأن من أهداف الدولة الإسلامية دفع عجلة الدعوة إلى الإمام؛ ليصل نور الإسلام إلى كل إنسان. إن الدولة العثمانية كانت ترى من مسؤولياتها القيام بوظيفة الدعوة

ونشرها في أرجاء الأرض وربط السياسة الخارجية على الأسس الدعوية العقيدية، قبل بنائها على الأسس المصلحية النفعية، وذلك كما كان يفعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، كان يقوم بتبليغ الدعوة إلى الآفاق امتثالاً لقوله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ «سورة المائدة: 67».

وقد امتثل عليه الصلاة والسلام للأمر وأرسل إلى ملوك الأرض فكتب إلى ملوك الروم فقيل له: إنهم لا يقرءون كتاباً إلا إذا كان مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة وختم به الكتب إلى الملوك وبعث كتباً ورسلاً إلى ملوك الفرس والروم والحبشة ومصر والبلقاء واليمامة في يوم واحد ثم بعث إلى حكام عمان والبحرين واليمن وغيرهم.

ولذلك اقتدى عثمان أرطغرل ـ رحمه الله ـ بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دعوته وسار أبناءه من بعده على هذا النهج وظهرت في الدولة جماعة الدعوة وكان الحكام والسلاطين يقفون معهما ويدعمونها مادياً ومعنوياً، ولقد سلك العثمانيون دولة وشعباً سبلاً متعددة من أجل إدخال النصارى في الإسلام ومن هذه الطرق:

ـ الاحتفال بمن يعلن اعتناقه للإسلام وإمداده بكل ما يعنيه على الحياة والابتهال به في المساجد.

ـ حرص العثمانيون على التمسك بالدين والتواضع في أداء الشعائر مما جعل بعض الأجانب يدخلون في الإسلام.

ـ معاملة الرقيق من الفرنجة باللين حيث كانوا يعتقونهم إذا ثبت إخلاصهم حتى ولو ظلوا على دينهم ويتولون رعايتهم وبخاصة كبار السن منهم بعد العتق فضلاً عن حسن معاملة من يسلم منهم أو يظل على دينه مما كان دافعاً لكثير منهم على اعتناق الإسلام.

ـ قام من دخل في الإسلام من الفرنجة بدعوة أقاربهم وذويهم لما رأوا من سماحة الإسلام وانسجامه مع الفطرة ومخاطبته للعقل وإحياؤه للقلب.

ـ قامت الدولة العثمانية بنقل قبائل إسلامية تابعة لها إلى قرى فرنجية ونقلت أعداد من الفرنجة إلى تجمعات إسلامية مما ساعد على انتشار الإسلام تدريجياً.

ـ قام السلطان مراد باتباع سياسة الإفراج عن الأسرى إذا هم اعتنقوا الإسلام وأسهم ذلك الأسلوب في زيادة عدد المسلمين.

ـ ومما ساعد على انتشار الإسلام في البلقان تعسف الإقطاعيين المحليين في فرض الضرائب الباهظة، وأن كبار رجال الدين من الإقطاعيين قد باعوا أسرار الكنيسة ووظائفها من جهة وسعوا في توثيق علاقاتهم بالنظام العثماني بل بعضهم دخل في الإسلام.

ـ توسع سلاطين العثمانيين في المنح والعطايا والتقدير لزعماء النصارى الذين أقبلوا على الإسلام وأظهر كثيرون منهم الإخلاص للدولة العثمانية.

لقد اهتم العثمانيون بأمر الدعوة إلى الله على المستوى الخارجي وإدخال الناس في دين الإسلام ولم يتركوا أمر الإصلاح الداخلي في الدولة وأحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد بين عثمان الأول ـ رحمه الله ـ أن حماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنق الحاكم المسلم وهذه الأمور تدخل تحت عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود والدعوة إلى مكارم الأخلاق وتعليم الأمة أمر دينها، ويكون ذلك بإشراف الحاكم المسلم فيترتب على تلك الأمور فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد والحاكم والمحكومين.

ومن أهم هذه الفوائد: ـ

ـ إقامة الملة والشريعة وحفظ العقيدة والدين؛ لتكون كلمة الله هي العليا. قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ «الحج: 40».

إن الإنسان لابد له من أمر ونهي ودعوة، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر.

1 ـ رفع العقوبات العامة: ـ

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ «سورة الشورى: آية 30».

فالكفر والمعاصي بأنواعها سبب للمصائب والمهالك قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ «هود: 116».

وقال:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ «هود: 117».

وهذه إشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، فإن الأمة التي يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هي أمة ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير.

2 ـ استنزال الرحمة من الله تعالى: ـ

لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة قال تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ «سورة إبراهيم: آية 7».

والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوع من العبودية لله.

3 ـ تحقيق وصف الخيرية في هذه الآية: ـ

قال تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله».

4 ـ التنحي عن صفات المنافقين: ـ

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

ٱلْمُنكَرِ ﴾ «التوبة: 7».

5 ـ «يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود»: ـ

إن أمة الإسلام تحتاج لكي تقوم بمهمتها في هداية الناس للخير إلى أن تكون صالحة في نفسها مصلحة ولغيرها فهي الشهيدة على الأمم؛ لأنها أمة الوسط. قال سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ «البقرة: 143»..

وهناك حقوق متبادلة بين الراعي والرعية والحاكم والمحكوم.

ومن وصية عثمان ـ رحمه الله ـ لابنه يبين له حق الرعية على الحاكم ولقد حرص العثمانيون كحكام على تنفيذ حقوق الرعية ومن أهم هذه الحقوق التي قاموا بها: ـ

ـ العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية.

ـ بذل الأسباب المؤدية إلى وحدة الأمة.

ـ العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج.

ـ أن يعمل الولاة على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين.

ـ إعداد الأمة إعداداً جهادياً.

ـ حفظ ما وضعت الشريعة لأجله.

ـ تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء وصرفها في مصارفها الشرعية.

ـ تحري الأمانة في اختيار أرباب المناصب.

ـ إعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

ـ الإشراف المباشر على سير الأمور بين الرعية في كل النواحي الإدارية التي تتعلق بما يصلح أحوالهم.

ومن واجبات الرعية تجاه الحكام:ـ

1 ـ الطاعة:

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ «النساء: آية 59».

وكان المجتمع العثماني شديد السمع والطاعة لحكامه ما داموا ملتزمين بالشرعية؛ لأنهم كانوا على علم بأن طاعة الحكام مقيدة دائماً بطاعة الله ورسوله، كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف».

2 ـ النصرة:

كان المجتمع العثماني دائماً يلتف حول حكامه الشرعيين ويلبي دعوة الجهاد

ويبذل الغالي والرخيص ويرى ذلك عبادة لله تعالى قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ «المائدة: 2».

وكان من مفاهيم المجتمع العثماني السائدة عندهم، من نصرة الحاكم ألا يهان ومن معاضدته أن يحترم وأن يكرم فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله، تستوجب تبجيله وإجلاله وإكرامه تبجيلاً وإجلالاً وإكراماً لشرع الله سبحانه الذي ينافح ويدافع عنه. يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجاني عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط».

3 ـ النصح: ـ

إن المجتمع العثماني كان يناصح ولاة أمره ويرى ذلك من صميم الدين لقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «الدين النصيحة ـ ثلاثاً ـ قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ـ عز وجل ـ ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم».

4 ـ التقويم: ـ

لقد استقرني مفهوم المجتمع العثماني أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن استقامة ولاتها، ولذلك نجد في التاريخ العثماني صور مشرفة في تقويم الحكام وإرشادهم ونصحهم.

فهذا المولى علاء الدين على بن أحمد الجمالي المتوفي سنة 932هـ. فقد كان عالماً عاملاً يمضي وقته في التلاوة والعبادة والدرس والفتوى، محافظاً على

الصلوات الخمس مع الجماعة، وكان كريم النفس، طيب الأخلاق، عظيم المهابة، صراعاً بالحق عفيف اللسان لا يذكر أحد بسوء ولعلاء الدين احتساب عظيم مع السلطان سليم خان المتوفي عام 926هـ ومن ذلك: أن السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين من موظفين، فلما سمع المولى علاء الدين بالأمر ذهب إلى الديوان ولم تكن عادته الحضور إلى السلطان إلا لأمر عظيم فلم يشعر الوزراء وأهل الديوان إلا بدخول الشيخ المفتي عليهم فوثبوا يستقبلونه حتى أقعدوه في صدر المجلس وقالوا له: أي شيء دعا المولى إلى المجيء إلى الديوان العالي؟

قال: أريد أن أدخل على السلطان ولي معه كلام، فأستاذنوا له على السلطان، فأذن له وحده فدخل عليه وجلس وقال: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعاً فغضب السلطان وكان صاحب حدة وقال له: لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك. فقال الشيخ: بل اعترض لأمر أخرتك وأن من وظيفتي ومهما عشت فإنك ميت ومعروض على الله، وواقف بين يديه للحساب فإن عفوت فلك النجاة وإلا فان أمامك جهنم وعليك عقاب عظيم ولا يعصمك ملكك ولا ينجيك سلطانك فما كان من السلطان إلا الإذعان والتسليم أمام نداء الحق من هذا المحتسب وخضع للحق وعفا عنهم جميعاً ثم أن المحتسب لم يكتفي بذلك بل طالبه أن يعيد الجميع إلى وظائفهم ففعل.

رحم الله المولى علاء الدين الذي كان عظيماً باحتسابه جريئاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ولقد تأثر السلطان سليم بهذا العالم وأرسل إليه بعد ذلك وطلب منه أن يكون قاضي العسكر وقال له جمعت لك بين الطرفين لأني تحققت أنك تتكلم بالحق فكتب إليه وصل إلى كتابك سلمك الله تعالى وأبقاك وأمرتني بالقضاء وأني أمتثل أمرك إلا أن لي مع الله تعالى عهداً أن لا تصدر عني لقطة حكمت فأحبه السلطان محبة عظيمة، وهكذا سار العثمانيون على المنهج الذي وضعه لهم المؤسس الأول.

6 ـ «ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك»: ـ

7 ـ «وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله»: ـ

إن عثمان الأول ـ رحمه الله تعالى ـ كان يرى أن نشر دين الله في كل الآفاق من وسائله الجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الغاية العليا للجهاد في سبيل الله هي إعلاء كلمة الله؛ لتحقيق عبادته وحده لا شريك له كما قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ « الذاريات 58، 56».

ومفهوم العبادة شامل لنشاط الإسلام كله ويفسر ذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ «الأنعام: 163».

ومن أجل هذه الغاية انطلق عثمان الأول بجنوده وشعبه مجاهداً في سبيل الله ولسان حاله يقول اتبعثنا الله لتخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الله الدنيا إلى وسعها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، لقد كانت وسيلة العثمانيين من أجل إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض الجهاد في سبيل الله، وعندما حاولت دول النصارى أن تعمل على منع توسع الدولة العثمانية وباشروا في شن هجومهم عليها كانت وسيلة الجهاد كالصخرة العظيمة التي تتحطم عليه محاولتهم المتكررة وإمام قادة العثمانيين قول الله تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ ﴾

«البقرة: 190 ـ 192».

ولقد عمل العثمانيون بهذه النصيحة والوصية فعملوا على إزالة كل العوائق التي تمنع الناس من سماع دعوة الله تعالى التي جاءت لتعطي الناس أكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطويرها.

ولقد جاهدت الدولة العثمانية في سبيل الله تعالى وفتح الله على يديها دول وشعوب لا زال الإسلام باقياً فيها حتى الآن مثل دول البلقان وعملت على حماية شعوب المسلمين من هجمات النصارى الغاشمة فكانت سبباً في بقاء الشمال الأفريقي على إسلامه ودينه وعقيدته وكانت عاملاً مهما في حماية

الأراضي المقدسة من البرتغاليين ومن دخل تحت لوائهم من النصارى إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة.

8 ـ «من انحرف عن سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأعظم يوم المحشر».

إن عثمان ـ رحمه الله تعالى ـ يتبرأ ممن ينحرف عن الحق والعدل من ذريته ويدعوا من جاء بعده بالتمسك بالحق وإقامة العدل.

إن العدل هو الدعامة الرئيسية في إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الرباني، فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل، ولذلك اهتم الإسلام بتقرير هذه القاعدة وتأسيسها وتدعيمها فأكثر الحديث عنها في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية ومن هذه النصوص:

«قال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

«النحل: 9»

وأن الله يأمر بالفعل كما هو معلوم ويقتضي وجوبه. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ «النساء: 58».

وقال تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ «النساء: 135».

ثم إن ترك العدل يعد ظلماً، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذم أهله وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك في الدنيا . قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ «إبراهيم: 42».

ومن خلال هذه التوجيهات الربانية حرص عثمان على إقامة العدل بين الناس وعمل أن يكون هذا المبدأ واقعاً تعيشه الأمة العثمانية من بعده حيث وكان يتحرك بجيوشه ويوظف كل إمكاناته من أجل نشر التوحيد وتعريف الناس بخالقهم، ولقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان وكان دستوره في التعامل مع الناس قول الله تعالى:

﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ «الكهف: 88، 87».

ولذلك حرص في وصيته على أن يحكم من بعده بالحق والعدل وفي رواية يقول لابنه في الوصية: «أعدل في جميع شؤونك..».

9 ـ «يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وبالإسلام نموت».

إن هذه الفقرة من الوصية بتبين طبيعة تكوين الدولة العثمانية عن غيرها

من الدول، فالغاية التي قامت من أجلها إنما هي الدفاع عن الإسلام ورفع رايته في مشارق آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية التي كانت تهدد المسلمين في ديارهم ومن ثم أطلق على زعيم هذه الدولة الناشئة لقب الغازي، أي المجاهد في سبيل الله، وكان يتلقى هذا اللقب في حفل مشهود بتسليمه راية الجهاد من عالم كبير وأن الغازي عثمان ـ رحمه الله ـ دعا المسلمين من الترك وغيرهم لينضموا تحت راية الجهاد في سبيل الله فاستجاب له الكثير من المؤمنين الصابرين تحدوهم جميعاً رغبة شديدة في الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية.

هذه الوصية الخالدة التي سار عليها الحكام العثمانيون في زمن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم. ترك عثمان الأول الدولة العثمانية وكانت مساحتها 16 , 000 كيلو متر مربع واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذ على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهي: إزنيق وبورصة.

الفصل الرابع

أورخان غازي
وريث العرش العثماني

ماذا بعد عثمان أرطغرل

أورخان غازي

السلطان الغازي شجاع الدين والدنيا أورخان خان بن عثمان بن أرطغرل القابوي التركماني «بالتركية العثمانية: غازي سلطان أورخان خان بن عثمان ابن أرطغرل وبالتركية المعاصرة: «Sultan Orhan Gazi Han Ben Osman» ويعرف كذلك باسم أورخان بك «بالتركية المعاصرة: Orhan Bey» هو ثاني سلاطين آل عثمان والابن الثاني لمؤسس هذه السلالة الملكية عثمان الأول، ولد في مدينة سكود عاصمة إمارة والده سنة 687هـ الموافقة لسنة 1281م والدته هي مال خاتون بنت الشيخ «إده بالي» وجده لأبيه هو الأمير الغازي أرطغرل بن سليمان شاه وجدته لأبيه هي حليمة خاتون.

تولى السلطة سنة 726هـ الموافقة لسنة 1326م بعد وفاة والده. وبعد أن تنازل له أخوه علاء الدين عن العرش طوعاً، وقد امتد حكمه حوالي 35 سنة. شهد عهده توسع الإمارة العثمانية وضمها للعديد من الأراضي والبلاد المجاورة وتصفية آخر مراكز النفوذ والقوة البيزنطية في آسيا الصغرى، فهزمت الجيوش العثمانية الروم بقيادة الإمبراطور أندرونيقوس الثالث باليولوك في

معركة بيليكانون وفتحت ما تبقى من قلاع وحصون بيزنطية في غرب وشمال غرب الأناضول ثم حاول أورخان أنظاره ناحية جيرانه المسلمين ففتح أراضي إمارة قره سى وضمها إلى ممتلكاته. وقد استفاد أورخان من النزاع الأسري والحرب الأهلية التي نشبت في بلاد الروم بعد وفاة الإمبراطور أندرونيقوس الثالث واعتلاء يوحنا الخامس ذي السنوات التسع العرش إذ استعان به الإمبراطور القائم بحكم الأمر الواقع يوحنا السادس قانتاقوزن؛ لقتال أنصار الإمبراطور الشرعي اليافع بقيادة والدته حنة الساقوية مما سمح للعثمانيين بالحصول على الكثير من الغنائم الحربية من مختلف أنحاء تراقيا، وقد تزوج أورخان بتيودورا ابنة الإمبراطور لقاء هذه الخدمات. وفي الحرب الأهلية الأخرى التي دارت رحاها بين الروم ما بين سنتي 1352، 1357م، عاود قانتاقوزن الاستعانة بأورخان ضد يوحنا الخامس نفسه هذه المرة ومنحه لقاء هذه الخدمة قلعة «جنبي» الواقعة في شبه جزيرة كاليبولي حوالي سنة 1352م وفي يوم 6 صفر 755هـ الموافق فيه 2 آذار «مارس» 1354م، ضرب زلزال شديد كاليبولي فدمرها وانهارت أسوارها، فعبر إليها العثمانيون بقيادة سليمان ابن أورخان وسيطروا عليها وأعادوا تعميرها، ليكون ذلك أول استقرار إسلامي بالبلقان وأولى الخطوات العثمانية نحو حصار القسطنطينية.

تكمن قيمة أورخان في التاريخ الإسلامي أن شهد أول استقرار للمسلمين في أوروبا الشرقية كما شهد ظهور نظام عسكري جديد وأول جيش نظامي في القارة العجوز هو جيش الإنكشارية الذي قدر له أن يكون أعظم جيش

في العالمين الإسلامي والمسيحي لفترة طويلة من الزمن، وأن يلقي الرعب في قلوب الملوك والأباطرة والأمراء الأوروبيين لمدة أربعة قرون قتالية، بالإضافة إلى ظهور الإمارة العثمانية التي أصبحت تمتد من أنقرة إلى تراقيا، بعد أن ضاعف الأراضي التي ورثها عن والده ست مرات، وأرسى أول تنظيم للدولة، وكما كان حال والده عاش أورخان حياة زاهدة أقرب إلى حياة المتصوفين ولم يلقب بالسلطان رغم شيوع ذلك اللقب في المؤلفات التي تتحدث عنه، بل عرف بلقب «بك» أي «أمير» وعندما زار الرحالة المسلم ابن بطوطة الأناضول في فترة حكم أورخان وقابله هناك قال عنه: «إنه أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالاً وبلاداً وعسكر وإن له من الحصون ما يقارب مائة حصن يتفقدها ويقيم بكل حصن أياماً لإصلاح شؤونه».

بداياته:-

لا يعرف سوى القليل عن شباب أورخان وحياته قبل توليه زعامة إمارة أبيه، كما أن هناك خلاف حول تاريخ ميلاده، تنص أغلب المصادر على أن ميلاد هذا السلطان كان في سنة 687هـ الموافقة لسنة 1281م، وبعضها الآخر يجعل ولادته في سنة 688هـ الموافقة لسنة 1281م، وعاش 80 سنة وفقاً لكتاب باسم «مناقب أورخان» كتب في عصره. كما أن المصادر المتأخرة بعضها يشير إلى أن ميلاده كان في سنة 1281م، والبعض الآخر ينص على أن ميلاده كان في سنة 1274م أو 1279م أو 1287م. لا يعرف كيف قضي

أورخان غازي طفولته وشبابه، كما لا يعرف كيف تربى وحصل على التعليم، بل حتى لا يعرف إن كان أمياً أو متعلماً. أول ظهور موثق لأورخان غازي في التاريخ كان في سنة 1298م عند زواجه من ابنة صاحب يار حصار وتدعى نيلوفر خاتون فولدت له سليمان ومراد. ظهر مرة أخرى عندما نقل والده مركز دولته من بيله جاك إلى يني شهر في سنة 1299م حيث أرسل أورخان مع الأتابك كندز ألب صاحب الخبرة إلى قره جه حصار وفي سنة 1300م فتح أورخان قلعة كوبري حصار ومن بعدها أصبح أميراً للحدود في قره جه حصار. ومن بعد ذلك حصل على رتبة بكلربك أو أمير الأمراء، وعين قائداً لجيش الإمارة الصغير وانضم إلى كل عمليات والده العسكرية. فاشترك في حصار إزنيق سنة 1301م، وحرب ديم بوز «دين بوز» سنة 1303م، بينما لم يشارك في حرب لفكه لبقائه في أسكي شهر وقره جه حصار؛ لمواجهة تهديدات الإمارة الكرميانية التركمانية المجاورة. وقد بقى معه رجال والده الموثوقين ككوسة ميخائيل وصالتون ألب. وأثناء انشغال والده بالفتوحات قام الأمير الكرمياني «جفدرتتر» بالهجوم على سوق قره حصار ونهبه ثم انسحب، فاقتفي أورخان أثر الناهبين ولحقهم حتى قلعة جفدر حصار، وأعاد ما نهبوه وأسر ابن جفدرتتر. وقد عقد عثمان غازي معاهدة مع الكرميانيين بهذا الأسير وأرجعه لوالده. وعندما قرر عثمان البقاء في قره جه حصار؛ لصد أي هجوم محتمل للكرميانيين أرسل ولده مع بعض القادة العسكريين من رفاق دربه وقادة الأخية الفتيان أمثال «غازي البلر» و«أقجه خوجة» و«قونور

ألب» و«الغازي عبد الرحمن» و«كوسة ميخائيل» إلى صقارية في سنة 1305م. ووفقاً لعاشق باشا زاده فإن تلك الغزوة كانت أول حرب يقودها أورخان غازي كما فتح أورخان قلعة «قره جيوش» ذات الأهمية الإستراتيجية وقلعة «قره تكين» الواقعة أمام إزنيق، وقلعة أيو، وانضم بعد ذلك إلى والده في يني شهر، وكان الهدف من تلك الحملات والغزوات قطع الإمدادات القادمة إلى إزنيق وإجبار حاميتها على الاستسلام، وقد اكتسب أورخان تجربته العسكرية في تلك الحرب. تشير بعض المصادر أيضاً أن عثمان أرسل ولده أورخان ما أن بلغ 20 سنة من العمر ليتولى حكم مناطق «ناقهير» الصغيرة لكن الأخير لم يمكث فيها طويلاً وعاد إلى العاصمة سكود سنة 1903.

فتح بورصة:-

ركز السلطان عثمان جهوده في سنواته الأخيرة على فتح المدن البيزنطية الكبيرة المعزولة، ورأى أن يبداء بفتح مدينة بورصة فبني بالقرب منها قلعتين تشرفان عليها وتحيطان بها. «وفي إحدى الروايات ثلاثة حصون». استمر الحصار العثماني لبورصة ما بين 10 و11 سنة ويرجع طول الحصار إلى عدم امتلاك العثمانيين أية أدوات حصار في تلك الفترة من تاريخهم، كما أن المدينة نفسها كانت حصينة ومنيعة إذ حمتها قلعة يبلغ طولها 3400 متر تحتوي على 14 برج مراقبة و6 أبواب ضخمة، وكان هناك سورين سميكين في المنطقة الواقعة تحت جبل أولوطاغ المجاور للمدينة. وأثناء استمرار عملية الحصار قام

عثمان وقادته بتطهير جوار الإمارة من بقايا الحصون الرومية، ففتحوها الواحد تلو الأخرى، ودخل بعض قادة تلك الحصون مع حامياتهم في خدمة عثمان. وأسلم البعض منهم فيما بقي البعض الآخر على المسيحية. وفي تلك الفترة أصيب عثمان بداء النقطة «الصرع» فبدا واضحاً أنه لم يعد قادراً على قيادة حصار المدينة بنفسه، فعهد إلى ابنه أورخان باستكمال الأمر. واعتزل هو الخروج مع الجيوش ولازم دياره واستمر حصار أورخان للمدينة دون أي قتال أو حرب لكنه تابع عزلها عن محيطها ففتح مودانيا قاطعاً صلة المدينة بالبحر، ثم فتح بلدة «برونتكوس» في الساحل الجنوبي لأزميد، وغير اسمها إلى «قره مرسل» تيمناً باسم فاتحها «قره مرسل بك» كما فتح بلدة «أدرانوس» أو «أدرنوس» الواقعة جنوب بورصة على قمة جبل أناضولي داغ، التي وصفت بأنها مفتاح المدينة وسميت «أورخان آلى» ضيق العثمانيون الحصار على المدينة حتى دب اليأس في قلب حاكمها وحاميتها وأيقن الإمبراطور البيزنطي أن سقوطها في أيدي المسلمين مسألة وقت لا أكثر، فأتخذ قراراً صعباً وأمر عامله عليها بإخلائها ففعل وانسحبت الحامية البيزنطية من المدينة ودخلها أورخان يوم 2 جمادى الأولى 726هـ الموافق فيه 6 نيسان «أبريل» 1326م، ولم يتعرض لأهلها بسوء بعد أن أقروا بالسيادة العثمانية وتعهدوا بدفع الجزية، واستسلم صاحب المدينة المدعو «إقرينوس» إلى أورخان ثم أشهر إسلامه أمامه وبايع عثمان ودخل في طاعته فأعطي لقب «بك» إكراماً له وتقديراً لما أبداه من شجاعة وصبر خلال الحصار الطويل وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد وتأثر به عدد

آخر من قادة الروم الذين بقوا في المدينة وحصونها المجاورة فأشهروا إسلامهم وانضموا تحت لواء العثمانيين، وبهذا فتحت بورصة بعد طول انتظار وأسرع أورخان عائداً إلى سكود؛ لينقل الخبر إلى والده.

تولية الإمارة:ـ

ظروف تولي أورخان السلطة: ـ

لما بلغ أورخان سكود استدعي على الفور إلى والده، فوجده في حالة النزاع ولم يلبث أن أسلم الروح بعد أن أوصى بالملك من بعده لأورخان، وهو ثاني أولاده بعد أن رآه أفضل وأكثر تهيئاً لزعامة الإمارة وقيادة الدولة من أخيه الأكبر علاء الدين، الذي اتصف بالورع الديني وميله إلى العزلة. على أن بعض المؤرخين قالوا بأن موضوع حصول أورخان على الإمارة وهل كان في حياة والده أم بعد وفاته محل نقاش. ووفقاً للمؤرخ البيزنطي «ليونيكوس خلقوقوندليس» «الذي تحدث دون أن يستند إلى مصدر»، فأن أورخان حين توفي والده انسحب إلى جبل أولو طاغ وجمع الجنود حوله ثم حارب أخوته: باظارلي بك وجوبان بك وحميد بك وعلاء الدين باشا ومالك بك وصاووجي بك وهزمهم وسيطر على العرش بالقوة. وقال ابن كمال أول المؤرخين العثمانيين في تاريخه أن أورخان أصبح أميراً بقرار قادة جماعة الأخية الفتيان المجاهدين والمرابطين على الثغور الإسلامية في الأناضول والذين كانوا يكنون كامل الاحترام والوفاء لوالده عثمان. ووفقاً للرأي السائد وهو رأي

المؤرخين العثمانيين الأوائل أمثال عاشق باشا زاده وأوروج بك ونصري باشا والحكايات المسرورة المقبولة والشائعة، فإن وجهاء الإمارة اجتمعوا مع أولاد عثمان غازي بعد وفاته وفي هذا الاجتماع اقترح أورخان ولاية أخيه علاء الدين ولكن علاء الدين رفض هذا المقترح وأفاد أن يرى أن أخيه أورخان هو المناسب لهذا المنصب بسبب نجاحاته العسكرية ووافقه في ذلك وجهاء الإمارة وهكذا أصبح أورخان أميراً على بلاد أبيه وقد ناهز الأربعين من عمره. واكتفي علاء الدين بمنصب الوزارة وإدارة الشؤون الداخلية؛ ليكون بهذا أول صدر أعظم في التاريخ العثماني. كان الاتفاق على تولية أورخان إمارة أبيه أحد أهم الإنجازات التي صنفها العثمانيون في تلك الفترة من تاريخهم فقد تخطوا استحقاق وفاة زعيمهم الكبير من دون أن تتكبد الإمارة العتيدة أي خسارة لوحدتها، ذلك أن العثمانيين لم يتبعوا التقليد التركي والمغولي كما فعلت الإمارات التركمانية المحيطة بهم، القائم على اقتسام السلطة وتوزيعها بين الأخوة وهكذا ورث أورخان دولة ليست لها قوانين أو عملة أو حدود واضحة يحيط بها جيران أقوى منها فكان عليه أن يقيم دولة راسخة الأقدام والتوسع على حساب جيرانه وتحويل إتباعه إلى أمة.

وصية والده:-

تنص المصادر العثمانية أن عثماناً ترك وصية مكتوبة لولده أورخان يوصيه فيها بإكمال مسيرة الغزو والجهاد ضد الروم، وأن يلتزم بتعاليم الشريعة

الإسلامية ويلازم العلماء ويعدل مع الرعية ويخلص إلى الإسلام ورسالته، كما تضمنت وصيته بعض النصائح إلى سائر أبناءه وإلى رفاق دربه الذين شهدوا معه كل الغزوات أو معظمها أما نص الوصية فهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً. يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز. وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله. يا بني: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت. وهذا يا ولدي ما أنت له أهل.أعلم يا بني أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عنها. يا بني إنني أنتقل إلى جوار ربي وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل الله؛ لنشر دين الإسلام. يا بني: أوصيك بعلماء الأمة أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم وأنزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخير. يا بني: إياك أن تفعل أمراً لا يرضي الله. وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فإنهم سيدلونك على الخير. وأعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وإننا لسنا طلاب جاه ودنيا. وصيتي لأبنائي وأصدقائي، أديموا علو الدين

الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله. أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد. اخدموا الإسلام دائماً؛ لأن الله قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله. ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم «صلى الله عليه وسلم» يوم المحشر. يا بني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت، وقد اقترب أجلي بأمر الله جل جلاله أسلمك هذه الدولة واستودعك المولى، اعدل في جميع شؤونك».

إنشاء جيش الإنكشارية:-

عني أورخان بتنظيم إمارته تنظيماً محكماً. والتفت في بداية حكمه إلى سن القوانين وإحداث التنظيمات الضرورية لحماية إمارته، وأدرك أن الأعباء الملقاة على عاتقها أكبر من إمكاناتها وبخاصة بعد أن أصبحت الإمبراطورية البيزنطية تنظر إليها بعين الريبة، ولذا اهتم أولاً بإعادة تنظيم الجيش الذي يشكل عماد الدولة، فلجأ إلى وسيلة تكفل له زيادة عدد أفراده وتوفير فئة خاصة شديدة الولاء للدولة. لم يكن للإمارة العثمانية عند قيامها جيش نظامي تعتمد عليه وقد وقع عبء الفتوح الأولى كلها على عاتق المجاهدين والباحثين عن الغنائم وجماعات الدراويش وكانوا كلهم من الفرسان، فيجتمعون في مكان محدد عن طريق المنادين، ثم يخرجون إلى الحرب، فإذا انتهت الحرب تفرقت جموعهم وعاد كل واحد إلى عمله الأساسي. والواقع أن العثمانيين اعتمدوا

منذ أول ظهورهم في التاريخ على نظاماً إقطاعياً كان الهدف منه تأمين مصدر ثابت لإمداد جيوشهم بالجند، يغنيهم عن إنشاء جيش نظامي دائم ويوفر لهم نفقاته، وكان هذا النظام هو إقطاع أو منح المحاربين والمجاهدين بعض المقاطعات الزراعية مقابل التزامهم بأن يكونوا دوماً على استعداد للسير إلى الحرب متى يدعون إليها، مع أعداد من الفرسان من أتباعهم تتناسب ومساحة الإقطاعة الممنوحة لكل منهم، وأن يجهزوهم بكل ما يحتاجون إليه من خيل وسلاح. بناء على هذا وضع الصدر الأعظم علاء الدين باشا نظاماً للجيوش التابعة لأخيه السلطان وجعلها دائمية وقسمها إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص أو مائة شخص أو ألف شخص وخصص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبها فيها.

لكن أورخان أدرك من خلال عملياته العسكرية السابقة حاجته إلى جيش من المشاة يستطيع بواسطته أن يفتح القلاع ويقتحم الأسوار المنيعة، وقد فشلت جهوده في تحويل الفرسان الترك إلى جنود مشاة حتى مع تنظيمات أخيه علاء الدين، وكان قبل تلك التنظيمات يعاني من تأخير الفرسان الإقطاعيين في الوصول إلى ساحة القتال في الوقت المحدد، وعدم تحملهم القيام بعمليات حصار طويلة، بالإضافة إلى أن لم يكن من الممكن الركون إليهم في عمليات عسكرية بعيدة عن مناطق إقطاعاتهم من دون التعرض لبعض المشاق. كما استدرك علاء الدين أمراً خطراً آخر ظهر في جيش الإمارة العتيدة، وهو تحزب كل فريق من الجند إلى القبيلة التابع إليها، وخشي انفصام عري الوحدة العثمانية

التي كان كل سعيه وسعي شقيقه السلطان في إيجادها. لهذا كان من الطبيعي أن يسعى الرجلان؛ لإنشاء جيش من المشاة دائم ومحترف، وهذا ما سمحت الظروف بتحقيقه في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، وذلك باستخدام عنصر غير مسلم وغير تركي وهو نظام عسكري جديد لم يكن متبعاً في الدول التركية الإسلامية السابقة على العثمانيين. كان صاحب هذه الفكرة هو قره خليل باشا الجندولي وهو أحد مستشاري أورخان، فأقترح عليه أن تأخذ الدولة خمس أسرى الحرب من فتيان الروم مقابل الضريبة المستحقة عليهم استناداً إلى قانون الخمس الذي صدر في عهد أورخان وأن يؤخذ أيضاً الأطفال الأيتام والمشردين من الروم والأوروبيين ويفصلون عن كل ما يذكرهم بقومهم وأصلهم وتتم تربيتهم تربية إسلامية تشمل الفكر والجسم؛ لترسيخ مبادئ الإسلام في قلوبهم وأنفسهم بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد والحرب، وأن يخضعوا بعد ذلك لتدريب عنيف خاص يهدف إلى تقوية أبدانهم وتعويدهم خشونة العيش، حتى إذا بلغوا السن اللائق للخدمة العسكرية أدخلوا ضمن فرق الجيش، ومما حبب هذه الفكرة وزينها إليه أن هؤلاء الغلمان لا يخشى على تحزبهم إلا للدولة والسلطان والإسلام نظراً لعدم وجود أقارب لهم يخش على ميلهم إليهم، كما استحسن أخوه علاء الدين هذا النظام. ويذكر أن أخذ الفتيان أو ما اصطلح على تسميته بـ «ضريبة الغلمان» كان مقصوراً على رعايا الدولة النصارى الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، ربما بسبب أنهم يشكلون الغالبية العظمى من رعايا

الإمبراطورية البيزنطية، وبالتالي المناطق التي فتحها المسلمون. هذا وتقول بعض الروايات أيضاً أن أورخان قرأ كتاب «سياسة نامة» لنظام الملك الوزير السلجوقي وقد ذكر فيه الطريقة المثلى لإنشاء قوة محاربة من المماليك الترك عبر تربيتهم على أساس النظم الإسلامية ثم يتم إدخالهم في خدمة العصور السلطانية والدوائر الحكومية، وبعدها بدأ أورخان في البحث عن طريقة لتأسيس تلك القوة.

بدأ أورخان منذ سنة 731هـ الموافقة لسنة 1330م بتأسيس جيش بلاده الجديد. فأقام الغلمان والفتيان المشردين والأيتام في ثكنات خاصة تسمى «أوطة» «ثم حرف لفظها بالعربية فصارت «أوضة» » أي «غرفة» وجعل يلقنهم التعليم العسكري الأساسي في مدرسة حربية عرفت بـ «الأوجاق» ووضع لهم قانوناً خاصاً تضمن أربع عشرة مادة تحدد النظام الداخلي وتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض، كما نص على وجوب الطاعة المطلقة والانقياد للسلطان. وحرم عليهم الزواج فكان الفرد منهم يعيش من دون أصل في تكوين أسرة، كما حرم عليهم الاختلاط بالمجتمع. وإنما وهبوا أنفسهم للدفاع عن الدين الإسلامي وملة المسلمين والسلطان، فالإسلام عقيدتهم والقرآن كتابهم والسلطان والدهم والثكنة العسكرية مأواهم والحرب مهنتهم. والقصة المشهورة أن أورخان غازي لما صار عنده من هؤلاء الجنود عدد ليس بقليل سار بهم إلى السيد محمد إبراهيم الخراساني الشهير باسم «الحاج بكطاش ولي» شيخ الطريقة البكطاشية بأماسيا ليدعوهم بالخير ويباركهم فدع لهم بالخير

والبركات والنصر على الأعداء وأن يبيض الله وجوههم ويجعل سيوفهم حادة قاطعة. وأعطى كل واحد منهم قطعة من طرف عباءته فعلقت على رؤوسهم تبركاً بها وكانوا ينسبون قطع اللباد التي في أغطية رؤوسهم إلى هذا الشيخ. وقال بعد أن باركهم: «ليكن اسمهم يكيجري» أي «الجيش الجديد» أو «الجند الجديد» وهذا الاسم مكون من كلمتين «يكي» وتعني «الجديد» و «جري» وتعني «عسكر» وقد حدث خطأ في نقل الكلمة إلى العربية فالكاف في كلمة «يكي» هي كاف نونية أو مثلثة والجيم في «جري» هي جيم مشوبة فالكلمة تكتب «يكيجري» وتنطق «ينى تشري» وهناك بعض المؤرخين الذي يشككون في صحة رجوع أورخان إلى الشيخ بكطاش ولي بل ينفونها على أساس أن هذا الصوفي توفي قبل قرن من إنشاء هذه الفرقة، وإنما باركهم أحد خلفائه.

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر وسطها هلال وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليها أسم «ذي الفقار» تيمناً بسيف رابع الخلفاء الراشدين الإمام علي بن أبي طالب. وعمل أورخان على زيادة عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة البيزنطيين، فأختار عدداً من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم فضمهم إلى الجيش وأهتم اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربية إسلامية جهادية، ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده. وأصبح يضم آلافاً من الجنود. وقد اعتمد لهم التقسيم العشري سالف الذكر، فجعل قائد الفرقة المكونة من عشرة جنود يسمى «أونباشي» وقائد الفرقة المكونة من مائة «يوزباشي» وقائد الفرقة المكونة من ألف

«بنباشي» ويعتبر المؤرخين أن الجيش الإنكشاري هو أول جيش نظامي دائم ذو أفراد يتلقون الرواتب بانتظام عرفته أوروبا قبل قرن كامل من اعتماد شارل السابع ملك فرنسا نظام العساكر الدائمة والتي يشار إليها غالباً خطأ بأنها أقدم جيش نظامي في العالم.

الفتوحات في الأناضول:ـ

فتح سواحل بحر مرمرة: ـ

ظهر أورخان بمظهر الفاتح في حياة أبيه، وكان قد استولى على بورصة من غير سفك للدماء وجعلها عاصمة لدولته لحسن موقعها. ونقل جثمان والده إليها ليدفن فيها بناء على وصيته التي كتبها قبل مماته: «يا بني عندما أموت ضعني تحت تلك القبة الفضية في بورصة»، وهذا هو الرأي الراجح عن عامة المؤرخين العثمانيين، على أن عاشق زاده باشا مؤرخ ذلك العصر يفيد بأن أورخان غازي أعطها لابنه مراد كسنجق. وبجميع الأحوال فإن أورخان أمضى الفترة الأولى من عهده منشغلاً بالفتوحات في الأناضول. وقد اعتبر خلال فترة إمارته الأولى هذه تابعاً للدولة الإلخانية المغولية في فارس كباقي إمارات الأناضول التركمانية واستمر في دفع الضريبة للإلخان المغول المقيم في تبريز. على أن إمارته كانت قد حازت قوة وشهرة في البلاد المغولية بسبب هجماتها وغاراتها على الأراضي البيزنطية. كما كان يدين بالولاء للخليفة العباسي القائم على عرش الخلافة الإسلامية في القاهرة. أضحت كل من

نيقوميدية ونيقية في بدايات عهد أورخان هدفاً في سياسته التوسعية. ثم استولى على شبه جزيرة بثينيا الواقعة في أقصى الشمال. وعلى قلعتي سمندرة وأبيدوس المحصنتين. وكانت تحرسان الطريق العسكري بين القسطنطينية ونيقوميدية ونزل في تراقيا. ثم راح يعد العدة لمهاجمة مدينة نيقية.

معركة بيليكانون:-

يعتبر عام 729هـ الموافق لعام 1329م من نقاط التحول في التاريخ العثماني فقد استقر العثمانيون في الفترة الممتدة بين سنتي 1305م إلى 1329م في شرق أدايازاري وسبانجا وأضحوا على مقربة من القسطنطينية، كما كانت نيقوميدية ونيقية قد حوصرتا من كل الجهات، ولم يبق مجال إلا سقوطهما في أيدي المسلمين، وكانت نيقية تحديداً مستعدة للاستسلام بسبب الجوع الذي ألم بأهلها وحاميتها بعد انقطاعها عن سائر بلاد الروم، لا سيما بعد فتح بورصة التي كانت بمثابة الشريان الحيوي إليها. دفعت الحالة القائمة البيزنطيين إلى الاعتقاد بأن الوضع أصبح مسألة حياة أو موت، لا سيما أن المسلمين بعد استيلائهم على بحيرة إزنيق بالكامل، أخذوا يستعدون بقيادة أورخان للقيام بهجوم حاسم أخير لفتح نيقية ونيقوميدية. وحدث في غضون ذلك أن اعتلى الإمبراطور أندرونيقوس الثالث باليولوك العرش البيزنطي فسعى لإنقاذ نيقية وإيقاف التقدم العثماني المندفع تجاه عاصمة الروم، على أمل أن يعيد الوضع على الحدود الإسلامية البيزنطية إلى حالة الاستقرار والركود. لذلك قاد بنفسه حملة عسكرية بلغ تعدادها 4,000 رجل وعبر بها مضيق البوسفور في 2

شعبان 729هـ الموافق فيه 1 حزيران «يونيو» 1329م وهبط في أسكدار وأتى إلى بيليكانون وهدفه الظاهر العبور إلى الطرف الآخرين مضيق نيقوميدية وأن يهبط من وادي يالاق دار وينقذ نيقية وما أن علم أورخان بذلك حتى سار مع حوالي 8,000 من جنوده وسيطر على تلال يبليكانون قاطعاً بذلك الطريق الإستراتيجية التي كان على البيزنطيين استخدامها للوصول إلى نيقوميدية.

وفي يوم 11 شعبان الموافق فيه 10 حزيران «يونيو»، أرسل أورخان 300 فارس نبال أسفل التلال لاستدراج البيزنطيين إلى حيث يتمركز الجيش العثماني، لكن الروم تمكنوا من صد هؤلاء ورفضوا التقدم أكثر من ذلك بعد أن شعروا بالفخ. فهبط عليهم العثمانيين من مواقعهم واشتبك الجيشان في معركة قوية بالقرب من ميناء جيزي بالقرب من سهل المكان المسمى قديماً «يبليكانون» واليوم «أسكى حصار» ودارت الدائرة على الجيش البيزنطي الذي حاول التقهقر والانسحاب دون أن لهم العثمانيون فرصة كبيرة لذلك، فقتل منهم الكثيرون وسرت شائعة تقول أن الإمبراطور قتل في المعركة، مما أشاع الفوضى والهلع في صفوف الجند. وفي واقع الأمر أن الإمبراطور كان قد أصيب إصابة طفيفة، فولى هارباً إلى القسطنطينية عن طريق البحر، وكان هروبه هذا إيذاناً بتخلي الأباطرة البيزنطيين عن آسيا الصغرى إلى الأبد. وطاردت الجيوش العثمانية فلول المنهزمين البيزنطيين الهاربة إلى فيلكورين وهي مدينة ساحلية صغيرة وأعملت فيها القتل وأسرت من تبقى من الجيش البيزنطي ولم يتمكن من الهرب. فقد أورخان في هذه المعركة 275 جندياً فقط، وغنم المسلمون

السرداق الإمبراطوري والرايات الإمبراطورية الرومية وتوجس الإمبراطور البيزنطي خوفاً بعد هذه الهزيمة فطلب من العثمانيين بحث طرق المصالحة.

والواقع أن انهزام البيزنطيين في معركة بيليكانون كان قاضياً على الأمل في المحافظة على نيقية، ما دفع الإمبراطور البيزنطي المتوقف عن المقاومة في الأناضول، أو تعزيز الحاميات البيزنطية المتبقية هناك. كذلك لا شك أن نصر أورخان وفتحه نيقية فيما بعد كان كفتح القسطنطينية آنذاك ونقطة تحول في العلاقات العثمانية البيزنطية فلم يعد أمام أورخان أي حاجز ليستولى على نيقية ومن بعدها نيقوميدية، وقد أدى هذا النصر أيضاً إلى انضمام كل القلاع الصغيرة التي على الساحل إلى الأراضي العثمانية بما فيها جيزي وهاراكا وكان سقوط كل حصون وقلاع الأناضول يعني تحول الخطر العثماني نحو القسطنطينية. اشتهر أورخان بعد هذا الانتصار، وأقام علاقات صداقة مع أول سلاطين الأسرة الجلائرية حسن بزرك. كما وصلت أخبار انتصاراته إلى القاهرة ودمشق حيث عم الفرح وخلع عليه الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان المستكفي بالله ألقابا تشريفية كثيرة هي: «السلطان» و «سلطان الغزاة» و «الغازي ابن الغازي» و «شجاع الدين والدنيا» و «اختيار الدين» و «سيف الدين».

حصار وفتح نيقية:ـ

فتح نيقية «1328 ـ 1331م»:ـ

بعد هزيمة البيزنطيين في بيليكانون، شدد أورخان الحصار على مدينة نيقية، ولما رأى أهلها أن الأمل مفقود في وصول أي مدد من القسطنطينية وأن

الإمبراطور تخلى عنهم أمام الأمر الواقع المفروض، أعلنوا استسلامهم وفتحوا أبواب المدينة للمسلمين ولم يحاول أي منهم مقاومة الجنود العثمانيين فسقطت المدينة في 21 جمادى الأولى 731هـ الموافق فيه 2 آذار «مارس» 1331م، وأظهر أورخان تساهلاً وتسامحاً كبيرين مع سكان المدينة المفتوحة. فسمح لهم بالبقاء فيها أو مغادرتها أن شاؤوا، ولم يعارض من أراد البقاء منهم في إقامة شعائر دينهم، وأذن لمن يريد المهاجرة بأخذ كافة منقولاته وبيع عقاراته مع تمام الحرية في إجراءاته. وقد دفعت هذه المعاملة الكثير من سكانها إلى اعتناق الدين الإسلامي. وأصلح أورخان ما تهدم من مبانيها وأسوارها وأسرف في الأنفاق على تحسينها وحول بعض كنائسها إلى مساجد ومدارس وأسس بها مجموعة جديدة من المدارس والتكايا للفقراء والمعوزين وأنشئ لزوجته وقفاً «نيلوفر خاتون» وسرعان ما استعادت المدينة مركزها الهامة وبخاصة في صناعة القاشاني ونسيج الحرير وأضحت أزهى المدن العثمانية وأكثرها رخاء ومركزاً للحياة العقلية الإسلامية وجعل أورخان أكبر أولاده المدعو سليمان باشا حاكماً عليها ولم يلبث في هذا المنصب إلا قليلاً حتى عين صدراً أعظم بعد وفاة عمه علاء الدين هذا وقد غير اسم المدينة من نيقية إلى «إزنيق» وبسقوطها في أيدي المسلمين انتهت سلطة الإمبراطورية البيزنطية عملياً في آسيا الصغرى.

حصار نيقوميدية وفتح ما بقي من بلاد الروم في الأناضول:-

واصل أورخان فتوحاته داخل الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى، فأرسل قوة عسكرية في سنة 733هـ الموافقة لسنة 1333م بقيادة ابنه سليمان،

لفتح المناطق الواقعة شمالي نهر صقارية ففتح قلاع كوينيك ومودرينة وتركجي، وبسقوط تلك القلاع تقلصت الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى ولم يعد لها سوى بعض المدن المتفرقة أشهرها نيقوميدية والأشهر وهرقلة. وتعرض الإمبراطور البيزنطي آنذاك لضغط مزدوج، فقد كثف التركمان المنطلقون من إماراتهم الساحلية على بحر إيجة، غاراتهم على الأراضي البيزنطية في أوروبا، كما تعرضت الممتلكات البيزنطية في البلقان لغارات من قبل الصربيين، فحرص على ضمان حياد أورخان؛ ليتفرغ لهذين الخطرين، وشرع في إجراء مفاوضات معه، وكان أورخان بغضون ذلك الوقت قد ضرب الحصار على نيقوميدية بجيش كبير حركه من خالكينيكي، وشرع المسلمون يقذفون أسوارها بالمنجنيق، وقد ذكر القائد الرومي يوحنا قانتاقوزن «الذي أصبح إمبراطوراً لاحقاً» معلومات مهمة حول هذا الموضوع، ووفقاً لتلك المعلومات، فإن هرع بسرعة لمساعدة المدينة، وقد أرسل أورخان رسولاً بينما كان الأسطول البيزنطي في الطريق وعلى وشك الوصول إلى نيقوميدية، وأخبر قانتاقوزن أنه مستعد للانسحاب وترك المدينة وشأنها إن وافق الإمبراطور على شروطه الخاصة للصلح، ومستعد للحرب إن لم يوافق، ورضي الإمبراطور بهذا وتم توقيع معاهدة صلح بين الطرفين في شهر ذي الحجة 733هـ الموافق فيه شهر آب «أغسطس» 1333م، وقد اقتضت المعاهدة صداقة أورخان للإمبراطور وعدم القيام بأي حركات عدائية ضد المدن البيزنطية وفي المقابل يتعهد الروم بدفع مبلغ من المال للعثمانيين، وأرسل أورخان كبادرة حسن نية عدة هدايا إلى

الإمبراطور منها خيولاً تركمانية وعربية مطهمة وكلاب صيد سلوقية وفراء نمور وسجاد وحلل بالمقابل على أطباق من الفضة وأقمشة صوفية وحريرية وبطانات سروج إلى جانب 12 ألف قطعة ذهبية سنوية لقاء تراجعه عن حصار نيقوميدية.

ضم إمارة قره سي وفتح نيقوميدية:ـ

فتح نيقوميدية: ـ

وفي 15 ربيع الآخر 736هـ الموافق فيه 1 كانون الأول «ديسمبر» 1335م، توفي آخر الخانات المغول في مارس أبو سعيد بهادر خان فسارع أورخان إلى إعلان استقلال إمارته عن الدولة الإلخانية بعد أن تفتت وانقضى أجلها؛ ليصبح بهذا سلطاناً حقيقياً غير تابع لأحد ولصفته أقدر أمراء ورثة سلطنة سلاجقة الروم، فقد أعلن بصورة رسمية أنه الخلف الشرعي للعرش السلجوقي الذي خلا. اختلفت مواقف الإمارات التركمانية الأخرى إزاء هذا الإدعاء فبينما عارضته صراحة إمارة القرمان التي كانت تسيطر على مدينة قونية التي كانت عاصمة العرش السلجوقي، تأرجحت مواقف الإمارات الأخرى بين التعاون مع إمارة القرمان والموافقة على موقفها المعارض أحياناً وبين مساندتهم لبني عثمان كسباً لودهم وخشية من قوتهم العسكرية المتنامية أحياناً أخرى.

وفي الواقع فإن إعلان أورخان هذا كان يفيد بمدى شعوره بالاطمئنان

والقوة أمام جيرانه ويفيد عن نية دولته العثمانية الناشئة أن ترث دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وترث ما كانت تملكه. وفي نفس الوقت أدى اندفاع العثمانيين باتجاه الغرب إلى رغبتهم في تأمين واجهة لهم على الساحل الجنوبي لبحر مرمرة، وكان موقع إمارة قره سي يحقق لهم هذه الرغبة، لذلك تطلع أورخان إلى ضمها. ويذكر يوحنا قانتاقوزن أن محاربي القره سي قاموا بغارات على الروملي قبل العثمانيين. وكانت إمارة قره سي تضم في الغرب مضيق إدرميت وبرغمة وطروادة وأيدين جك في جنوب سواحل مرمرة. وبالق أسير في الشرق. وقد كان القره سيؤن في مقدمة الإمارات التركمانية التي شرعت بالإغارة على الروملي ومضيق جنق قلعة من الناحية الأخرى، ومن المعروف أن الأمير ياخشى بك كان قد أغار على شبه جزيرة كاليبولي وتراقيا قبل سنوات من عبور العثمانيين إليها.

بدأ العثمانيون في الاستيلاء على أراضي إمارة قره سي قطعة قطعة في الفترة الممتدة بين سنتي 1336م إلى 1361م، وكان دميرخان أمير قره سي أراد أن يتحد سابقاً مع عثمان غازي في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية ضد البيزنطيين، وبعد وفاة دميرخان دب النزاع بين ولديه طورسون وتيمور طاش حول الأحقية في العرش، فالتجأ طورسون إلى أورخان على أمل أن يحصل منه على العون ضد شقيقه ولم يفوت أورخان هذه الفرصة ليضم أراضي قره سي إلى ملكه، فعقد مع الأمير معاهدة نصت على ضم بلاده بالكلية للدولة العثمانية، على أن يترك قلعة بهرام ومنطقة «قزل جه ـ طزلا» التي تخرج مقادير

وافرة من الملح. وبهذا أصبحت إمارة قره سي أول إمارة إسلامية في الأناضول يضمها العثمانيون إلى أملاكهم وذلك في سنة 735هـ الموافقة لسنتي 1334 ـ 1335م. وبذلك أضحى الساحل الجنوبي لبحر مرمرة عثمانياً. وغدا العثمانيون يتحكمون في مضيق الدردنيل كما أصبحوا أقوى الإمارات التركمانية في المنطقة.

بعد الانتهاء من ضم إمارة قره سي حول أورخان أنظاره مجدداً ناحية نيقوميدية طامحاً في ضمها إلى ممتلكاته، ولم يعبئ بمعاهدة الصلح المنعقدة بينه وبين الروم سابقاً. ذكر قانتاقوزن أن أندرونيقوس إمبراطور البيزنطيين خرج في سفر طويل بجيشه لمواجهة المتمردين الأرناؤوط «الألبان» في سنة 1337م، ولم يكن هناك أي احتمالية لمجيئه إلى شبه جزيرة نيقوميدية وكانت حاكمة المدينة في تلك الفترة أميرة من عائلة الإمبراطور. ولم يفوت أورخان تلك الفرصة وسارع بمحاصرة نيقوميدية وعندما وصل إلى هناك انضم إليه كل المحاربين المسلمين الذين في الجوار. ولم يصمد أهل المدينة أمام الحصار بسبب الجوع ونقص المؤن، فقررت الأميرة الإستسلام واتفقت مع أورخان على شروط التسليم، ونصت الاتفاقية على رحيل من يريد من الروم إلى القسطنطينية ودخول الجيش العثماني أثناء ترك هؤلاء للقلعة. وهكذا فتحت نيقوميدية سنة 737هـ الموافقة لسنة 1337م وسميت «إزميد» وبفتحها امتدت الأراضي العثمانية من الشواطئ الآسيوية لبحر أيجة حتى شواطئ البحر الأسود في شمال غرب الأناضول، كما أنه باستيلاء أورخان على بورصة وإزنيق وأزميد وصل العثمانيون لدرجة من القوة تمكنهم من إنشاء دولة مستقلة.

ترسيخ دعائم الإمارة العثمانية العتيدة:-

أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قره سي عشرين سنة دون أن يقوم بأي حروب، بل قضاها في صقل النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة، وفي تعزيز الأمن الداخلي، وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها، وإقامة المنشآت العامة الشاسعة، واهتم بتوطيد أركان دولته وتولى الأعمال الإصلاحية والعمرانية ونظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وأنشأ المعاهد العلمية. وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين، وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة وكانت كل قرية بها مدارسها، وكل مدينة بها كليتها التي تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق وفلسفة ما بعد الطبيعيات وفقه اللغة وعلم الإبداع اللغوي والبلاغة والهندسة والفلك إلى جانب تحفيظ القرآن وتدريس علومه والسنة النبوية والفقه والعقائد. ومن أثار أورخان في هذه الفترة أنه أسس مدرسة عالية في مدينة بورصة وأخرى في مدينة إزنيق، وأجزل العطايا للشعراء والعلماء. وحرص أورخان على تعزيز سلطانه في الأراضي التي ضمها وحرص على طبع كل أرض جديدة بطابع الدولة المدني والعسكري والتربوي والثقافي وبذلك تصبح جزءاً لا يتجزأ من الأملاك العثمانية بحيث أصبحت أملاك الدولة في آسيا الصغرى متماثلة ومستقرة.

وقد قام أورخان بتنظيم ممالكه تنظيماً إدارياً محكماً فقسمها إلى سناجق بلغ تعدادها قبل عبوره إلى أوروبا 4 سناجق، وهي: الإمارة الأم وهي المنطقة

الشاملة على مدينتي سكود وأسكي شهر وما جاورها من القرى والكور، السنجق الخداوندكاري وهي ما عرف بـ «بلاط السلطان» واشتمل على بورصة وإزنيق وقراها وكورها، سنجق قوجه إيني وهو يشتمل على البلاد الواقعة ضمن شبه الجزيرة المحيطة بأزميد، سنجق قره سي المشتمل على أراضي الإمارة سالفة الذكر. وعين ولده سليمان على إزميد وأرسل ولده الآخر مراد إلى سنجق بورصة وعين ابن عمه كندز ألب على قره جه حصار. أيضاً أمر أورخان بضرب العملة من الذهب والفضة، ونقش اسمه على إحدى وجوهها واسم الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة على الوجه الآخر.

الفتوحات في أوروبا:-

العبور الأول الروملي:-

عندما اعتلى أورخان عرش الإمارة العثمانية كانت القبائل التركية قد عبرت المضيق إلى الجانب الأوروبي مرات من دون أن تحقق نجاحاً أو تترك أثراً، ولذلك لم يعرها الإمبراطور البيزنطي أية أهمية لكن نشأت من هذه الغزوات مع مرور الزمن حملات منظمة نمت شيئاً فشيئاً على أيدي إمارات الأناضول التركمانية، والراجح أن أمور بك حاكم أيدين قام بغارات متكررة على الأراضي البيزنطية في أوروبا. وحاول الإمبراطور البيزنطي التحالف مع الغرب الأوروبي لوقف الزحف التركماني بعامة والعثماني بخاصة. على الرغم من المعاهدة المبرمة مع أورخان فتقرب من البابا يوحنا الثاني والعشرين

وأقنعه بضرورة شن حملة صليبية ضد العثمانيين. ويبدو أن انهماك حكام الغرب الأوروبي بمشكلاتهم الداخلية والخارجية وعدم موافقة رجال الدين البيزنطيين الأرثوذكس على التعاون مع البابا والكنيسة الكاثوليكية أفسد هذا المشروع ما أعطى أورخان فرصة طيبة للتوسع في أوروبا استغلها بنجاح ففي سنة 737هـ الموافقة لسنة 1337م حاول أورخان مهاجمة القسطنطينية وتثبيت أقدام المسلمين في تراقيا بواسطة أسطول صغير يتكون من ست وثلاثين سفينة لكنه هزم أمام البيزنطيين. ومع ذلك فقد أوقعت هذه الغزوة الرعب في قلب الإمبراطور البيزنطي فسعى إلى مصالحة أورخان والتقرب منه وزوجه ابنته ولكن هذا الزواج لم يحل بين العثمانيين وبين الاندفاع إلى الأمام لاحقاً.

تدهور أوضاع الإمبراطورية البيزنطية:-

توفي الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثالث باليولوك يوم 30 ذو الحجة 741هـ الموافق فيه 15 حزيران «يونيو» 1341م، وسرعان ما تدهورت أوضاع الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاته حيث عانت من الحروب الأهلية والصراع الداخلي على السلطة بين زعماء اعتراهم الوهن والضعف لم يقدروا الخطر الذي يواجه دولتهم، ومن جهة أخرى فقد الشعب ثقته بنفسه وبزعمائه الذين راحوا يتسابقون للاستعانة بالعثمانيين ضد بعضهم البعض، في الوقت الذي ازدادت فيه قوة الإمارة العثمانية، ما قضى نهائياً على تلك المعاهدة المبرمة مع أندرونيقوس الثالث. وتنازع على عرش الإمبراطورية آنذاك كل

من الإمبراطور الشرعي يوحنا الخامس باليولوك والإمبراطور يوحنا السادس قانتاقوزن وبلغ من شدة ضعف الإمبراطورية أن أخذت الدويلات البحرية الإيطالية صاحبة المستعمرات التجارية القائمة بجوار القسطنطينية تتقاتل فيما بينهما لتدفع كل منها الأخرى عن مركز السيادة التجارية في المياه البيزنطية دون أن يكون للروم رأي في ذلك، بل أن بعضها تطاول على الإمبراطورية نفسها. فكانت جمهورية جنوه تسيطر على مستعمرة غلطة الواقعة على الجانب المقابل من مضيق القرن الذهبي، وفي سنة 1348م أعلن الجنوبيين الحرب على الروم عندما قرر الإمبراطور يوحنا قانتاقوزن إنقاص قيمة التعريفات الضريبية على السفن الداخلة إلى الجانب البيزنطي من القرن الذهبي في سبيل استقطاب التجارة إلى الإمبراطورية وتحويل انتباه التجار من الجنوبين ودامت الحرب بين الطرفين حوالي سنة وانتهت بتنازل الجنويين عن بعض الأراضي المحيطة بغلطة وبإبقاء الروم على التعريفات الضريبية السابقة. وفي سنة 1352م أدت المنافسة التجارية القوية بين البندقية وجنوه إلى نشوب حرب بينهما، وقد حالف البيزنطيين البنادقة رغبة منهم بطرد الجنوبيين والانتقام منهم وزودوهم ببعض السفن الحربية غير أنهم تعرضوا لهزيمة قاسية على يد الجنوبيين. ودخل الصربيون آنذاك على خط الصراع السياسي فاستغلوا النزاعات البيزنطية الداخلية وغزوا الأراضي البيزنطية في سنة 750هـ الموافقة لسنة 1349م بقيادة القيصر اسطفان دوشان فاستولوا على سالونيك وبعض المدن الأخرى.

العبور الثاني نحو الروملي وفتح كاليبولي:-

كان الإمبراطور البيزنطي القائم بحكم الأمر الواقع يوحنا السادس قانتاقوزن قد استنجد بأمير أيدين أمور بك في حروبه ضد البلغار فأرسل إليه الأخير جيشه وأسطوله عدة مرات ودخل الروملي ثم عاد. ولما غزا الصرب أراضي الإمبراطورية عاد وطلب من المساعدة مجدداً فأجابه أمور بك بأنه مشغول في الحرب مع الكاثوليك اللاتين ـ أعداء البيزنط ـ في إزمير، ومن ثم فإن سوف يتعذر عليه المجئ، وأوصاه بطلب المعونة من أورخان بك بن عثمان. وفي نفس الوقت كان السلطان أورخان يقف موقف المتيقظ مما كان يحدث في البلاط البيزنطي، ووضع نصب عينيه إستراتيجية جديدة في التعامل مع الروم تقتضي مسايستهم بدقة ومساندتهم عسكرياً لو أضطر الأمر، وعدم البدء بالاعتداء أو الهجوم. وأدرك بفطنته وحنكته السياسية أن الروم سوف يطلبون العون من العثمانيين عاجلاً أم أجلاً بعد أن تكاثر عليهم الأعداء ونخرت سوسة الفساد والحروب الأهلية بلادهم، وليس لهم من حليف قوي مجاور إلا العثمانيين وبناء على رؤيته هذه قرر أورخان أن يكون إرساله للجنود نحو الروملي لمساعدة البيزنطيين هو بداية استحواذ العثمانيين على أراضي في تلك البلاد وبداية استقرار المسلمين فيها وأن تكون تلك فاتحة الانطلاق نحو فتح بلاد أوروبية غير مسلمة. وبالفعل حصل ما توقعه أورخان إذ أرسلت إليه الإمبراطورة حنة الساقوية والدة يوحنا الخامس والوصية عليه، أن

يرسل جيشاً لمساعدتها ضد يوحنا السادس قانتاقوزن، ما دفع هذا الأخير إلى استقطاب أورخان بأن زوجه ابنته تيودورا مقابل ستة آلاف جندي يقدمها له أورخان، وفي 21 شوال 747هـ الموافق فيه 3 شباط «فبراير» 1347م، دخل الجيش العثماني ليلاً إلى القسطنطينية بناء على دعوة الإمبراطور الذي كان قد دعى أورخان للحضور كذلك لكن الأخير لم يقبل الدعوة بل أرسل ابنه سليمان قائداً عاماً بدلاً منه. وتمكن الإمبراطور بهذه القوة العسكرية من الاستيلاء على المدن الواقعة على شواطئ البحر الأسود باستثناء سوزوبوليس واعتلاء العرش في سنة 748هـ الموافقة لسنة 1347م، ويعتبر العبور الثاني إلى الروملي ودخول العثمانيين إلى البلقان والقارة الأوروبية أحد أهم الوقائع التاريخية فانطلاقاً من هذه النقطة تغير مجرى التاريخ الأوروبي ومصير الدول الأوروبية كذلك.

وفي سنة 750هـ الموافقة لسنة 1349م تطلع الإمبراطور البيزنطي مجدداً إلى مساعدة العثمانيين بعد أن استولى الصرب بقيادة اسطفان دوشان على سالونيك وبعض المدن الأخرى كما أسلف وشجعهم هذا النجاح إلى التطلع نحو القسطنطينية نفسها. بهدف إقامة دولة أرثوذكسية قوية على إنقاض الإمبراطورية البيزنطية المتهالكة؛ لتلم شمل جميع النصارى الأرثوذكس الشرقيين بمواجهة البابوية الكاثوليكية. ومن المعروف أن الولاة البيزنط الذين كانوا يتولون إدارة الولايات البلقانية كانوا دوماً على خلاف مع الأقوام الصقلبية «السلاقية» مثل الصرب والبلغار ولم يكونوا قادرين على إدارتهم

بالهين وعندما تقابل أورخان مع الإمبراطور سنة 1347م في أسكدار تناولا بالحديث التدابير المشتركة تجاه الخطر الصقلبي في البلقان وإمكانية التعاون ضد الصقالبة. وبعد هذا الغزو، أرسل الإمبراطور يوحنا السادس إلى أورخان يطلب منه الاستعانة بجنوده مرة أخرى، لوقف الزحف الصربي، فأمره بعشرين ألف جندي بقيادة ابنه سليمان. لكن حدث أن تراجع أسطفان دوشان قبل وصوله إلى العاصمة البيزنطية في حين نجحت القوات العثمانية في إبعاد الصربيين عن إقليم تساليا، بعد معركة إيمثيبون على نهر مارتيزا، وأعادت سالونيك إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية وسلمها سليمان إلى الأمير متياس قانتاقوزن ثم عاد مع جنوده إلى آسيا الصغرى. ويبدو أن الإمبراطور يوحنا السادس قد تعرض مجدداً لمشكلات من قبل منافسه يوحنا الخامس في سنة753هـ الموافقة لسنة 1352م، إذ هاجم يوحنا الخامس مدينة أدرنة التي يحكمها متياس بن يوحنا السادس واحتلها بمساعدة الصرب، ما دفع يوحنا السادس إلى طلب المساعدة من صهره أورخان، الذي أرسل إليه قوة عسكرية قوامها عشرين ألف جندي بقيادة ابنه سليمان فسار جنباً إلى جنب مع جيش بيزنطي نحو أدرنة، وأنقذ تلك المدينة. وبعد عدة أشهر هزم الجيش العثماني جيشاً بلغارياً صربياً مشتركاً على ضفاف نهر مريج كان يتقدم لاحتلال القسطنطينية. واعترافاً بفضل سليمان باشا أهدى الإمبراطور إليه في سنة 1353م قلعة «جمبة» الصغيرة الواقعة على الضفة الأوروبية من مضيق جنق قلعة؛ لتسهيل عبوره إلى أوروبا وكي يتخذها قاعدة له. استغل سليمان

هذه الفرصة وبدأ بتسكين عائلات الجنود والتركمان المهاجرين في تلك المنطقة وأنحائها ولما رأى الإمبراطور بداية استقرار المسلمين فيها، عرض عشرة آلاف قطعة ذهبية لأورخان كتعويض عنها ورغب في مقابلته للتشاور في ذلك، ولكن أورخان لم يقبل بتلك المقايضة ويقول بعض المؤرخين أن العرض لم يسمع به أورخان أصلاً كونه كان يعيش أيامه الأخيرة آنذاك وكان قد أصبح شيخاً عليلاً.

عسكرت قوة سليمان بن أورخان تحت أسوار العاصمة البيزنطية لفترة من الزمن، لكنها استدعيت فجأة إلى الأناضول بسبب خطر غير محدد، ويبدو أن السبب هو عدم وفاق العثمانيين مع جيرانهم من الإمارات التركمانية، إذ كان العثمانيون قد انتزعوا خلال فترة حملتهم في الروملي مدينة أنقرة من القرمانيين، فلجأ هؤلاء إلى الإيريتتين أتباع الأمير «أرتنا» الذين كانوا يعدون أنفسهم مسؤولين عن إدارة الأناضول بعد رحيل الحاكم المغولي تيمور طاش في سنة 727هـ الموافقة لسنة 1327م، وقد نتج عن ذلك أن خرجت أنقرة عن سيطرة العثمانيين، لكن هؤلاء احتفظوا بقلعة «جمية» المهمة وراحوا يشنون الغارات منها على مدينة كاليبولي الواقعة على شاطئ الدردنيل. وهي ذات أهمية اقتصادية كبيرة، وعلى تراقيا، واستطاعوا خلال مدة وجيزة من فتح كاليبولي، وذلك أثر زلزال شديد تعرضت له في 6 صفر 755هـ الموافق فيه 2 آذار «مارس» 1354م تصدعت خلاله أسوارها، ثم ساءت الحياة بشكل أكبر فيها بعد العواصف الثلجية والمطر الشديد الذي خلف ذلك الزلزال. وكان سليمان

في «قره بيجة» القريبة منها، فاستغل هذه الفرصة وحاصر المدينة ثم فتحها، كما فتح قلاعاً عدة في المنطقة منها أبسالا ورودستو، فاشتد بذلك الضغط العثماني على القسطنطينية وأضحى قطاع تراقيا هدف العثمانيين التالي، وفعلاً خضع هذا الأقليم لهم. وحتى يثبت أقدام العثمانيين في المناطق المفتوحة ومنع البيزنطيين من استعادتها، ثم عمد أورخان إلى نقل أعداد كبيرة من الرعايا التركمان إليها بهدف أسلمتها وتتريكها، والواقع أن دخول الترك بعامة إلى منطقة الروملي وترسيخ أقدامهم فيها، جرى بشكل منظم فكانت كلما تقدمت مناطق الحدود التي استوطنها المجاهدون القادمون من الأناضول نحو الغرب ازدادت فرص العمل والرزق في الأراضي المفتوحة فتجتذب الناس الذين كانوا يعيشون في ضيق في الأناضول. وفي خلال عدة أشهر أصلحت منازل كاليبولي بشكل يجعلها صالحة للحياة، وأنشئت أسوارها من جديد، وتحولت إلى مدينة مسلمة كل سكانها ترك مسلمون طلب الإمبراطور البيزنطي من سليمان باشا وجنوده والتركمان الذين استقروا في كاليبولي الانسحاب منها بعد أن رأى تبدل الوجه الديمغرافي للمنطقة، إلا أن سليمان باشا رد عليه بأنه وقومه جاؤوا إلى المنطقة ولم يخرجوا أحداً من بيته بالقوة، وأنهم لن يردوا عطية الله لهم.

وحاول الإمبراطور إغراء العثمانيين للخروج من المدينة، فعرض عليهم مصاريف أخلائها ودفع تعويضات لهم، إلا أن سليمان باشا لم يقبل رغم ذلك، واشتكى الإمبراطور لصهره أورخان غازي وتقرر أن يقابله في إزميد، إلا أن أورخان لم يذهب للقاء بسبب مرضه وصعوبة سفره، أما الإمبراطور الذي

اعتبر ذلك هزيمة كبيرة أصيب بيأس كبير. وما حدث في القسطنطينية آنذاك من حسم الصراع على السلطة، حيث حمل الشعب البيزنطي يوحنا السادس مسؤولية استقرار المسلمين في البلقان، الأمر الذي دفعه إلى التنازل عن الحكم في 1 ذي الحجة 756هـ الموافق فيه 4 كانون الأول «ديسمبر» 1355م، لصالح يوحنا الخامس، أتاح للعثمانيين التدخل في صميم الحياة البيزنطية؛ لأن سليمان تدخل في هذا النزاع لمصلحة الثاني وتأكد هذا التعاون بالتقارب الأسري حيث خطب الشاهز إده خليل بن أورخان إحدى بنات الإمبراطور وجرى الاحتفال بمراسم الخطبة في القسطنطينية.

سنواته الأخيرة ووفاته:-

اعتزل أورخان العمل السياسي والخروج مع الجيوش في أيامه الأخيرة، وأمضى ما تبقى من حياته في بورصة متضرعاً ومتعبداً لله. وأوكل جميع الأمور الإدارية في الدولة لابنه مراد وفي سنة 1356م خُطف ابن أورخان وتيودورا الشاهز إده خليل على يد أحد القباطنة الجنونيين الذي كان يعمل بالقرصنة إلى جانب عمله بالتجارة، فاقتاده إلى جزيرة «فوجة» في بحر أيجة الخاضعة للجنونيين، ثار غضب أورخان لما علم بهذه الحادثة، فلجأ إلى صهره الإمبراطور يوحنا الخامس لمساعدته على حل المشكلة واتفقا على أن يتوجه الأسطول البيزنطي إلى الجزيرة ويدفع فدية الأمير العثماني التي بلغ قدرها 100,000 هيبر بيرون، فتوجه الأسطول حاملاً الفدية وعاد بالأمير

إلى بلاده. بعد ذلك بفترة حصلت فاجعة في حياة أورخان إذ بينما كان ولي عهده سليمان باشا يركب حصانه في أوائل سنة 760هـ الموافق فيه أواخر سنة 1358م زلت أرجله على بعض الحجارة فسقط عنه سليمان واصطدم رأسه عليها، فمات على الفور وعمره 41 سنة. وقيل أيضاً أن وفاته جاءت نتيجة اصطدامه بعض الأشجار وهو على صهوة جواده الذي ثار ولم يستمع لتعليمات سيده، وكانت وفاة سليمان سببا في وقف التقدم العثماني في أوروبا إلى حين؛ لأن سليمان كان الأكثر قدرة من بين أبناء أورخان على متابعة هذه المسيرة وحزن أورخان حزناً شديداً على وفاة ابنه حتى قيل أن أجله اقترب أكثر من شدة حزنه، وفي شهر جمادى الأول 761هـ الموافق فيه شهر آذار «مارس» 1360م توفي أورخان وسنة 81 سنة ومدة حكمه 35 سنة بعد أن أمد إمارته بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة وترتيباته المفيدة ودفن في مدينة بورصة في تربة والده عثمان وإلى جانب ابنه سليمان.

تجديداته وتنظيماته الإدارية:ـ

في مضمار الدولة: ـ

جعل أورخان غازي من إمارة العثمانيين دولة فعلية بفضل القوانين الجديدة والتنظيمات التي سنها. فكان إنشاء منصب الصدارة العظمى لأول مرة في تلك الحقبة، وهو أول من عين القضاة والصوباشيين، وأرسل القضاة إلى السناجق، وأنشئ الديوان الهمايوني وكذلك نظام الوقف. بلغت مساحة

الأراضي العثمانية عشية وفاة أورخان 950,000 كلم2، وهي تمثل 6 أضعاف الأراضي التي كانت عند جلوسه على العرش. شملت هذه المساحة كامل ولايات بيله جك الحالية وبورصة وبالق أسير ـ مع جزر بحر مرمرة وصقارية وقوجه أيلي، بالإضافة إلى ولاية جنق قلعة واقضية بيغا وأمروز وبوزجا أدا وولاية سنجق أسكى شهر والجانب الأسيوي من أسطنبول عدا بضعة قرى في الجزر البحرية المجاورة للمدينة وأقضية كشان وأبسالا التابعة لأدرنة، وقضاء لوله برغاز التابع لولاية قرقلر إيلي وولاية تكرطاج عدا قضاء سراى وأقضية سوما وقرق أغاج التابعة كولاية مانيسا ودومانج التابعة لولاية كوتاهية وبرغمة وديكيلي وقنيق لولاية إزمير وأقضية المركز ونالليخان وبك بازاري وعياش وقيزاجه حمام وحيمانا وبولاتي التابعة لولاية أنقرة. وهكذا ترك السلطان أورخان قطراً لا يستهان به خاصة إذا ما أخذ بعين الاعتبار أن تعداد سكان هذه الأراضي في ذلك العصر كان يفوق بكثير تعداد سكان مملكة إنكلترا إذ يقدر عدد العثمانيين في سنة 1362م بما يفوق 3 ملايين نسمة بقليل بينما بلغ عدد الإنكليز مليوني نسمة حينها.

في مضمار الجيش: ـ

وصل عدد الجنود العثمانيين في عهد السلطان أورخان بداية من سنة 1332م إلى 90,000 جندي: 40,000 منهم خيالة و 50,000 مشاة وعندما فتح إمارة قره سي سنة 1345م أنضم جنود هذه الإمارة البالغ عددهم 25,000 إلى الجيش العثماني، ولم يكن في تلك الأيام لأي أمير

أناضولي مثل هذا العدد الكبير من العساكر، الذين وصل عددهم في نهاية عهد أورخان إلى 115,000 جندي، وعلى سبيل المثال فإن من بين أقدر الجيوش الأمارات التركمانية كان جيش الإمارة القرمانية، وقد تكون من 50,000 جندي منهم 25,000 خيال و 25,000 مشاة وتبين هذه الأرقام مقدار أرجحية كفة الميزان لصالح العثمانيين. كذلك عندما ألحق أورخان إمارة قره سي ببلاده، أصبحت الإمارة العثمانية تمتلك أسطولاً صغيراً. فقد كان لبني قره سي أسطول حربي وجنود بحارة وأمراء بحار مجربون. طور سليمان باشا هذا الأسطول وجعل ميناء «أيدن جك»المواجه لباندرمه في الرأس الشرقي لخليج «أردك»؛ ليكون قاعدة بحرية لهذا الأسطول. وبهذا الأسطول عبر سليمان باشا مضيق جنق قلعة وفتح في 6 صفر 755هـ الموافق فيه 2 آذار «مارس» 1354م قلعة كالبيولي.

في مضمار التجارة والاقتصاد: ـ

أصدر أورخان غازي قانون التجارة في بورصة بعد قانون والده عثمان غازي الذي صدر في أسكي شهر حوالي سنة 699هـ الموافقة لسنة 1300م وهو من أقدم القوانين العثمانية ومكون من 21 مادة، وبالإضافة إلى المواد التي تحدد الضريبة المفروضة على أهل الحرف وأصحاب الدكاكين فقد وضعت لأول مرة عدة قواعد لتحديد معايير الإنتاج والتشغيل لعمال الحمامات والسمكريين وبائعي الشراب.

في مضمار الحوار الديني: ـ

عندما فتح العثمانيون كالبيولي، وقع في أيديهم مطران سالونيك المدعو جرجس بالاماس الذي كان أحد ألمع اللاهوتيين البيزنطيين وزعيماً للحركة الهسيكاستنية التي اعتمدتها الكنيسة الرومية الأرثوذكسية عقيدة رسمية في عهد يوحنا السادس قانتاقوزن الذي لقي تأييداً من جانب بالاماس. وكان بالاماس يبحر من جزيرة تينيدوس إلى القسطنطينية عندما وقع أسيراً في يد البحارة العثمانيين، فاقتادوه إلى بيثينيا. ولما أدرك أورخان الهوية المميزة لسجينه طلب فدية ضخمة لإطلاق سراحه، وأكرمه تكريماً عالياً، وأتاح له الاجتماع بعدد من مسيحي بيثينيا وإطلاعهم على التطورات الجارية في الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة. وأظهرت عائلة السلطان أورخان اهتماماً بوجود هذا المطران على الأراضي العثمانية. بسبب علاقاته الوثيقة مع الدوائر الملكية المحيطة بقانتاقوزن. وأثناء وليمة دعى إليها ذات مرة من قبل إسماعيل حفيد أورخان، تسنى للمطران بالاماس أن يثير في مناقشة مستفيضة مسائل الصوم في المسيحية والإعراض عن أكل اللحم والمعتقد المسيحي في الصليب والسيدة مريم العذراء. وقد تناهت بلاغة بالاماس إلى السلطان أورخان الذي بادر إلى عقد ندوة عامة للحوار بين المسيحيين والمسلمين في نيقية حيث دعا عدداً من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام؛ لتمثيل الجانب الإسلامي في هذا اللقاء. جرت المناقشة باللغة اليونانية كونها كانت اللغة الأم للروم واليهود ممن اعتنقوا الإسلام مؤخراً. كما حضر الندوة عدد من المترجمين لمساعدة المسلمين

الترك على فهم وقائع المساجلة. وتميزت تلك الندوة بالحيوية وتناولت مسائل جوهرية عدة منها: موسى والأنبياء والبعث وصعود المسيح وإحجام المسيحيين عن الاعتراف برسالة النبي محمد والختان وبدا في تلك الندوة أن المسلمين كانوا مغتبطين مما سمعوا وتعلموا وقد حيوا بالاماس باحترام كبير قبل أن تختم المناقشات وينفض المستمعون، وفي المقابل أقدم أحد اليهود ممن اعتنقوا الإسلام على إهانة المطران وضربه غير أنه اعتقل فوراً وجئ به إلى السلطان. وبادر بالاماس بعد أيام قليلة إلى خوض مناقشة دينية عامة على نحو غير رسمي مع عالم مسلم متمكن شاهده وهو يؤم صلاة الجنازة، ودار السجال بين الطرفين حول مسألة رئيسية تمثلت في اجتثاث اسم الرسول محمد من الكتاب المقدس وتحلق حول الرجلين جمع من المسلمين والمسيحيين لمتابعة تفاصيل الحوار وبدا بالاماس متطرفاً قليلاً في آرائه الأمر الذي استفز بعض المسلمين من الحضور، وعندما لاحظ ما ألت إليه أجواء المناقشة استدرك مبتسماً بالقول أن في حال اتفق الجميع على سائر المسائل، فإنهم بذلك يتقاسمون ديناً واحداً بعينه ثم اندفع أحد المسلمين قائلاً بلهجة متفائلة إن يوما ما قد يحمل في طياته توفقاً من هذا القبيل قبل أن ينفض الجميع بسلام.

شخصيته وبنيته الجسدية: ـ

تفيد المصادر أن أورخان بن عثمان كان وسيماً ومهيباً وقوياً وجهه أبيض اللون يميل إلى الوردي وكان عاقد الحاجبين ومدور اللحية وطويل القامة وعريض المنكبين وكان أنفه يشبه كبش الدك وكانت عيناه واسعتين. أما المؤرخ

الرومي «هالكوكوتديلس» فيقول أن أورخان كان «شديد اللباقة وكريماً بشكل خاص مع الفاتحين والفنانين والفقراء» أما المؤرخ العثماني «نشرى» فيقول إنه كان يحب العلماء وحفظة القرآن وخصص لهم رواتب تسمى بالتركية «ألفة» يعتبر الباحث التركي «دوغان توبان» أنه نظراً لافتقار المؤرخين والباحثين إلى المعلومات المؤكدة عما إذا كان الغازي أورخان يهتم بالفنون الجميلة أم لا، يمكن اعتبار المزهرية المعروضة في متحف اللوفر بباريس والتي تحمل اسمه بمثابة طرف خيط في هذا الموضوع، والتعمق في الجانب الفني لأورخان. ويروي أن أكثر ما كان يدخل البهجة إلى نفس أورخان كان إشعاله قناديل الجوامع التي أمر ببنائها وتوزيعه الطعام الذي أمر بطهيه في قصره على الفقراء والمساكين بنفسه. أما المؤرخ التركي أحمد حمدي طابنار فيصف الخصوصية التأسيسية لأورخان على النحو التالي: «أنه في نقطة البداية لا يتوقف عند حدود بناء إمبراطورية فيضيف إليها عمق الرحمة والشفقة أيضاً» حسب كتاب «التاريخ الصافي» ليحيى بستان زاده، كان أورخان يصوم أيام الاثنين والخميس ويعتمر قبعته من وبر الصوف ويلفها بلفة بيضاء تيمناً بالملا جلال الدين الرومي. وبحسب بعض المصادر كان يعتمر قبعته من وبر حيوان أبيض. أخيراً وصف الشاعر يونس أمره خصال ويتم السلطان أورخان بقوله: «أنا لا أميز بين يونس والغازي أورخان ومن معه ممن عملوا على تأسيس الإمبراطورية الثانية، كلما انحنيت نحو وجه الغازي أورخان رأيت خطوطاً منعكسة من ديوان يونس وأحيى عالم القيم البناءة المتولدة من لغته التركية وزوبعة روحه الكامنة خلف تلك الفتوحات كلها».

زوجاته وأولاده: ـ

تزوج أورخان بعدة نساء خلال حياته، منهن مسلمات ومنهن مسيحيات وبعض تلك الزيجات كان له واقع سياسية محض وبعضها الآخر كان زواجاً تقليدياً، وقد توفيت بعض زوجاته في حياته وتزوج من بعدهن وأنجب عدة أولاد من ذكور وإناث أما قائمة زوجاته وأولاده فهي: ـ

* سلطان بك خاتون «1324 ـ 1362م» وأنجب منها: ـ

* خديجة خاتون: تزوجت سليمان بك الراماد ابن صاووجي بك ابن أخ جدها عثمان الأول.

* نيلوفر خاتون «1283 ـ 1383م» ابنة صاحب يني حصار البيزنطي. ويلاحظ أن هذا الزواج كان له وضعاً غريباً من الناحية العمرية، إذ عندما تزوج أورخان من نيلوفر كان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره. وبهذا تكون نيلوفر أكبر من أورخان بخمس سنوات أو ست. وبالتالي يمكن القول إن زواجها منه ـ في البداية على الأقل ـ لم يكن سوى عمل رمزي بهذا السبب وكما يعتقد الباحث رشيد أكرم قوتشو، إن من غير المعقول أن ينشأ عشق جسدي بين صبي في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره وصبية في السادسة عشرة من عمرها. أنجبا ولدان على الأقل أو ثلاثة، بقي نسل سلاطين آل عثمان منحدراً من واحد منهم فقط هو مراد، لهذا السبب قيل بأن السلالة العثمانية من نسل نيلوفر خاتون.

* سليمان باشا «ح. 1316 ـ 1357م» الابن البكر لأورخان وولي عهده المفترض وصاحب الفتوحات الكبيرة في أوروبا توفي بعد أن سقط عن حصانه كما أسلف.

* مراد الأول «1326 ـ 1389م» تولى الأمـارة بعد أبيه وتوسع في الفتوحات بأوروبا وفتح بلاد الصرب وأقساماً كبيرة من الروملي وعزل القسطنطينية عن محيطها قضي نحبه في معركة توصوه على يد جندي صربي.

* قاسم باشا «ت . 1346م»

* بيالون خاتون.

* أسبورجه خاتون: نسبها موضع خلاف بين المؤرخين، وقد تزوجها أورخان سنة 1316م وأنجب منها صبي وبنتان، ولما ماتت دفنت مع زوجها في تربته ببورصة.

* إبراهيم باشا «1316 ـ 1362م» تولى حكم أسكي شهر.

* فاطمة خاتون.

* سلجوق خاتون.

* تيودورا قانتاقوزن خاتون: ابنة إمبراطور بيزنطة يوحنا السادس قانتاقوزن وأيرين اسانينا تزوجها أورخان سنة 1346م وبموجب هذا الزواج وضع العثمانيون خمسة الآف جندي تحت تصرف البيزنطيين ويبدو أنه كانت للإمبراطور شروط أخرى كأن يُمكن أورخان زوجته من رؤية عائلتها كلما

استبد بها الشوق لرؤيتهم. وتشير إحدى السجلات إلى أن أورخان آتى مع زوجته هذه إلى جواد أسكدار سنة 1347م حيث مد جنوده سجاداً على العشب، واتى جنود بيزنطيون على متن زورق إلى قرب برج العذراء على مدخل مضيق البوسفور واصطحبوا تيودورا إلى قصر والدها وبعد بقاء تيودورا هناك فترة وإشباع شوقها لعائلتها أعادوها إلى جوار برج العذراء وسلموها لجنود أورخان. ومن المعلوم أن عرس تيودورا أقيم في منطقة سيلفري وجاءت السفن العثمانية إلى هناك لأخذ العروس وانطلقت من مودانيا إلى بورصة واصطحبتها إلى قصر السلطان. أنجب ابناً واحداً على الأقل.

* خليل باشا «1347 ـ 1362م»: يشتهر بسبب حادثة خطفه على يد بعض القراصنة الجنونيين وتواسط الإمبراطور البيزنطي لفدائه وإطلاق سراحه كما أسلف.

* مريم خاتون: ابنته الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثالث باليولوك.

* أفتان ديسه خاتون: ابنة محمود كندز ألب عم أورخان وشقيق والده عثمان.

وفي سنة 1351م حدثت مفاوضات بين العثمانيين والصربيين في محاولة من القيصر الصربي أسطفان دوشان استقطاب أورخان إلى جانبه، وكان من ضمن المباحثات أن تتم تقوية أواصر العلاقات الصربية العثمانية عن طريق المصاهرة، فعرض اسطفان دوشان أن يزوج ابنته تيودورا لأورخان أو لأحد

أبنائه غير أن المفوضين الصرب هوجموا من قبل نفقور أورسيني حاكم إمارة أبيروس الرومية بإيعاز من الإمبراطور البيزنطي؛ لإفشال تلك المباحثات فتوقفت المفاوضات ولم يتم الزواج واستمرت الأعمال الحربية بين الصرب والعثمانيين.

ميراثه: ـ

يقول المؤرخ التركي أحمد حمدي طانبار أن أورخان كان نموذجاً لجميع السلاطين على مدى قرن ونصف ويرى كاتب تاريخ العثمانيين الشيخ أدريس البدليسي في كتابه الموسوم بالفارسية «هشت بهيشت» أي «ثمانية سلاطين» أو «ثمانية جنان» ». أن أورخان غازي هو المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية بينما يرى المؤرخ الكبير خليل إينالجك أن أورخان غازي كان أول حاكم عثماني لقب بلقب «سلطان» ويعتبر عبد الرحمن شرف بك آخر المؤرخين العثمانيين أن مقدام ووضع أسساً قوية لبناء الدولة التي بدأ والده ببنائها، ونجح بنقل قبيلة كانت تجوب فيافي الأناضول إلى دولة حكمت في أوروبا وآسيا بفضل إدارته العادلة.

يعزي المؤرخ الشيخ عبد القادر أوزجان نجاح أورخان إلى ما تلقاه من الآداب والعلوم على يده جده لأمه الشيخ «إده بالي» وإرادة والده عثمان الفولاذية التي ورثها عنه، وصدقه الذي اشتهر به حتى قيل بأنه لم يحيد عنه في حياته وصراحته الدائمة ودعاء علماء المرحلة له بالبركة والحفظ كما يقول

أوزجان أن تواضع علاء الدين بن عثمان يشكل سبباً إضافياً لنجاح أورخان كمؤسس للدولة العثمانية. هذا ومن المعروف أن أورخان كان أول سلطان رسمت طغراء باسمه وسار على نهجه جميع سلاطين بني عثمان الذين أتوا من بعده حتى انهيار الدولة بعد حوالي 600 سنة، شكل حكم أورخان بداية النهاية بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية ومرحلة جديدة في التاريخ الإسلامي، شهدت أول استقرار للمسلمين في أوروبا الشرقية وبالإجمال ينظر إليه على أنه أحد أنجح السلاطين العثمانيين خصوصاً والمسلمين عموماً في مسيرتهم العسكرية والسياسية وبفضل إنشائه جيش الإنكشارية توسعت الدولة العثمانية لاحقاً حتى فتحت كامل البلاد البلقانية وضمت ما جاورها من بلاد إسلامية بعد أن أصبح ذلك الجيش أكبر عامل من عوامل تقدم الفتوحات والتوسعات.

الفصل الخامس

الخاتمة والخلاصة

الخاتمة والخلاصة
عثمان الأول بن أرطغرل
مؤسس الدولة العثمانية

إن الأمور الحتمية القدرية التي قضاها الله عز وجل والتي يغفل عنها معظم المسلمين ويجهلها تماماً أعداء الإسلام أن الله عز وجل قد حفظ أمة الإسلام من الزوال بالكلية واستجاب لدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم في ألا يسلط عليها عدو من سواها يستأصل شاقتها تماماً، فأمة الإسلام قد تضعف وقد تمرض مرضاً شديداً ويدب الوهن في كل أعضائها ولكنها لا تموت ولا تخلو الأرض أبداً إلى قيام الساعة من الجماعة المؤمنة الموحدة فهي لا تنقرض ولا تزول مثلما حدث مع دول أخرى كبيرة مثل: دولة الإغريق أو الرومان أو الفرس، وكلما سقط للمسلمين في بلد دولة قام لهم في بلد آخر دولة، وكلما اضطهدوا واستضعفوا في بقعة قووا وتجمعوا في بقعة أخرى.

ومهما كانت الضغوط والابتلاءات على المسلمين فإن جذوة الإيمان تظل حية متقدة في قلوبهم ومن لا يصدق فلينظر إلى مسلمي روسيا وما عانوه لعهود طويلة من نكال واضطهاد، ولما سقطت إمبراطورية الكفر نهض المسلمون من

تحت الركام في أيديهم مصحفهم وفي قلوبهم هداية الإسلام وفي نفس العام الذي سقطت فيه الخلافة العباسية العريقة تحت ضربات الجحافل الهمجية المغولية سنة 656هـ، ولد رجل وسط عمار هذه الأحداث الرهيبة قدر له أن سيكون منشئ دولة تنوب عن أمة الإسلام في التصدي لأعدائها لقرون عديدة ودولة ستعيد مجد الخلافة الإسلامية ودولة ستنشر الإسلام في قلب أوروبا ويتحقق على يديها موعود النبي صلى الله عليه وسلم بفتح عقر دار النصرانية القسطنطينية، ونعني بها: الدولة العثمانية التي تنتسب لبطلنا هذا الذي نؤرخ له.

أصل الدولة العثمانية:ـ

يرجع أصل الدولة العثمانية إلى الجنس التركي أو التركماني وكلاهما واحد فالتركمان هو نحت لكلمتين هما: «ترك» و«إيمان» وكانت علامة على من يؤمن من قبائل الترك بالإسلام حيث كانت الوثنية منتشرة فيهم قبل الإسلام، وينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تستوطن شمال العراق في إقليم كردستان، وتعيش على رعي الدواب ولكن هذه القبيلة تحت الضغط المغولي الوحشي اضطرت للهجرة إلى بلاد الأناضول، وذلك سنة 617 هجرية واستقرت هذه القبيلة في مدينة «أخلاط» وكانت من أملاك الأيوبيين فلم يستقر بهم الحال بالمدينة فواصلوا الهجرة باتجاه الشمال الغربي حيث كانت دولة سلاجقة الروم

وزعيمها علاء الدين السلجوقي.

كان دخول العشيرة التركمانية وزعيمها «أرطغرل بن سليمان» إلى أرض سلاجقة الروم أشبه ما يكون بالملاحم الأسطورية وقصص التراث الشعبي المشوقة ذلك لأن «أرطغرل» وقبيلته عند دخولهم لأرض سلاجقة الروم وجد قتالاً شرساً تدور رحاه بين المسلمين والبيزنطيين وكانت الكفة قد أوشكت للميل ناحية البيزنطيين وهنا تقدم «أرطغرل» ورجال قبيلته لإنجاد أخوانهم في الدين من الهزيمة وكان هذا التقدم سبباً لانتصار المسلمين على النصارى وقدر «علاء الدين» هذه الفعلة لأرطغرل وعشيرته وأعطاهم قطعة كبيرة من الأرض في الحدود الغربية على الحدود مع الدولة البيزنطية؛ ليسكنوا فيها وأقام معهم حلف مودة وأخوة وجهاد ضد الدولة البيزنطية.

الأمير عثمان:-

ولد «عثمان بن أرطغرل» سنة 656 هجرية أي في نفس العام الذي سقطت فيه دولة الخلافة العباسية أي أن «عثمان» ولد في أجواء مضطربة والأمة الإسلامية في حالة ضعف واضطهاد وتسلط من أعدائها فتفتحت عينا الصبي الصغير على مآسي المسلمين وزوال هيبتهم وضياع خلافتهم وتفتحت أيضاً على عدو صليبي عتيد مرابط على ثغور قبيلته، فنشأ «عثمان» محباً للجهاد مشحوناً بالإيمان مضطرباً برغبة عارمة في استعادة أمجاد المسلمين والانتقام من أعداء الإسلام.

كانت القبيلة التركمانية ـ التي هي معدن العثمانيين وأصلهم بحكم موقعها الجديد المثاغر للبيزنطيين ـ قبيلة جهادية معنية بأمور الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام، مما جعلها قبيلة مؤمنة طغى عليها سمت الإيمان والحياة النقية، فلا مجال للترف ولا وقت للهو واللعب، بل حلقة مستمرة من الجهاد ضد أعداء الإسلام، لذلك نجد أن «عثمان» كان ملازماً لأبيه «أرطغرل» في جهاده ضد الصليبيين وأيضاً ملازماً لأحد علماء الدين الصالحين الورعين واسمه الشيخ «إده بالي» القرماني، يتعلم على يديه ويبيت عنده الليالي، وكانت ابنة الشيخ صالحة وجميلة فأراد «عثمان» أن يتزوجها فرفض الشيخ في بادئ الأمر ولكنه عاد ووافق بعد ما قص عليه «عثمان» هذه الرؤيا العجيبة فلقد نام عثمان عنده يوماً فرأى في منامه كأن قمراً خرج من حضن الشيخ ودخل حضنه، عند ذلك نبتت شجرة عظيمة من ظهره ارتفعت أغصانها إلى عنان السماء وتحتها جبال عظيمة تتفجر منها الأنهار، ثم تحولت أوراق الشجرة إلى سيوف مشرعة ناحية القسطنطينية فاستبشر الشيخ «إده بالي» بهذه الرؤيا ووافق على تزويجه من ابنته وبشر عثمان بأنه وذريته سيرثون الأرض ويحكمون العالم.

انهيار مملكة سلاجقة الروم:ـ

كانت مملكة سلاجقة الروم قد تكونت بعد المعركة الخالدة «ملازكرد» سنة 463 هجرية والتي انتصر فيها السلاجقة بقيادة «ألب أرسلان» على جحافل البيزنطيين يقودهم الإمبراطور «رومانوس ديوجين» وقد فتحت هذه المعركة

الطريق أمام السلاجقة المسلمين للانسياع في منطقة الأناضول وعين السلطان «ملكشاه بن ألب أرسلان» أحد أقاربه وهو «سليمان بن قتلمش» والياً على الأناضول أو آسيا الصغرى لمواصلة التوسع في أرض الروم واستمرت هذه المملكة أكثر من قرنين من الزمان وتعاقب عليها أربعة عشر حاكماً من سلالة «سليمان بن قتلمش» حتى ظهر المغول في ساحة الأحداث.

بعدما أسقط التتار الخلافة العباسية واصلوا حملتهم البربرية لإبادة الإسلام وأهله، فاتجهوا ناحية الشام التي سقطت سريعاً في أيديهم ولكن الله عز وجل ـ الذي حفظ الإسلام وأهله من سن الاستئصال ـ قيض المماليك وقائدهم «سيف الدين قطز»؛ ليوقفوا الاكتساح التتاري وينتصروا عليهم في معركة عين جالوت سنة 658 هجرية وبعدها حول التتار وجهتهم إلى منطقة الأناضول حيث مملكة سلاجقة الروم والتي قد دب الضعف والتفرق بين أمرائها مما جعلها لا تصمد أمام ضربات التتار وخاف بعض أمرائها وتحالفوا مع التتار ضد إخوانهم المسلمين واستقوا بالكافرين على المؤمنين مما جعل «الظاهر بيبرس» يسير إلى بلاد السلاجقة الروم سنة 675 هجرية ويحاربهم مع حلفائهم التتار والكرج «أهل جورجيا الآن» وينتصر عليهم في معركة البستان، ومع قوة المماليك وضعف المغول واهتمامهم بالعراق وما حولها فقط زالت دولة سلاجقة الروم وقامت مكانها عدة إمارات في الأناضول منها أبناء أيدين وأبناء تركة وأبناء أرتنا وأبناء كرميان وأبناء حميد وأبناء صاروخان وغيرهم كثير.

قيام الدولة العثمانية:-

مر بنا كيفية دخول واستقرار القبيلة التركمانية بقيادة «أرطغرل بن سليمان» في غرب الأناضول بعدما سمح لهم أمير أمارة القرمان «علاء الدين السلجوقي» بالاستيطان بإماراته وعقد حلفاً مع «أرطغرل» للدفاع المشترك ضد العدو البيزنطي، ولما توفي «أرطغرل» سنة 687 هجرية تولى مكان ولده «عثمان» فبدأ يوسع أملاك القبيلة ناحية الغرب بموافقة «علاء الدين» أمير القرمان وأصدر «عثمان» عملة باسمه كناية عن المكانة والسيادة.

في سنة 699 هجرية أغار المغول على إمارة القرمان نفر من وجههم «علاء الدين» ودخل بلاد الروم وما لبث أن مات بها في نفس العام وتولى من بعده ولده «غياث الدين» الذي حارب المغول ولكن قتل في حربه ضدهم، فأفسح المجال لـ «عثمان» لأن يستقل بما تحت يديه من أراض خاصة بعدما انفرط العقد بتلك البلاد المهمة والتي تعتبر ثغر المسلمين قبالة عددهم العتيد الدولة البيزنطية وأعلن «عثمان» قيام الدولة الإسلامية الجديدة في هذه البقعة الملتهبة من العالم، ولم يكن هذا التأسيس من باب حب السلطة التملك، إنما كان حباً في نشر الإسلام.

عقبات في الطريق:-

عندما قامت الدولة العثمانية وظهرت للوجود سنة 699 هجرية، كانت البقعة الملتهبة التي أقيمت فيها مليئة بالعقبات والمشاكل التي ستصطدم حتماً ولابد بهذه الدولة الوليدة.

هذه العقبات كانت كالآتي: ـ

1 ـ عقبات داخلية: ـ

وتتمثل في الإمارات المجاورة للدولة العثمانية قبل إمارات القرمان ومنتشا وصاروخان وغيرها كثير، وكان أمراء تلك البلدان ضعفاء متفرقين يؤثرون الدنيا ومتاعها الزائل، قد قعدوا عن الجهاد واشتغلوا بخلافاتهم الداخلية ومطامعهم الشخصية عن نصرة الإسلام ومقارعة الأعداء مما أطمع فيهم المغول والصليبيين وغيرهم وهؤلاء المتغلبون على إماراتهم رفضوا أي محاولة للاتحاد مع الأمير عثمان وقفوا حجر عثرة في سبيل إعادة مملكة سلاجقة الروم المتحدة القوية بل وقفوا أمام أي اتحاد، وبالتالي كانوا عبئاً ثقيلاً على حركة الفتح الإسلامي.

2 ـ عقبات خارجية: ـ

وتتمثل في الإمارات الصليبية المتناثرة في منطقة الأناضول الواسعة والذين يحكمون هذه المناطق على شكل الحكم الذاتي مع الارتباط الديني والقومي مع الدولة الأم «بيزنطة» مثل: إمارة بورصة، ومادانوس، وأدرهنوس، وكستلة وغيرهم وهؤلاء عداوتهم أصلية وقديمة لذلك قرر الأمير «عثمان» أن يبدأ رحلته الجهادية بمواجهة الصليبيين في منطقة الأناضول خاصة وأن أمراء الصليبيين قد تنادوا سنة 700 هجرية بتكوين حلف صليبي؛ لتصفية الوجود الإسلامي الجديد بالأناضول بعدما سقطت سلطنة سلاجقة الروم.

رحلة الجهاد المقدس: ـ

بدأ الأمير «عثمان الأول» رحلته الجهادية المقدسة واضعاً نصب عينيه هدفاً أسمى هو إعلاء كلمة الله عز وجل في فترة زمنية حرجة بالنسبة للأمة الإسلامية التي تعاني من ضربات التتار من ناحية الشرق وضربات الصليبيين الأسبان بالأندلس من ناحية الغرب، وكانت صفات «عثمان الأول» الإيمانية وعميق حبه للدين غالبة وحاكمة على تحركاته وحملاته فكان لا يبدأ القتال مع أعداء الإسلام إلا بعد ما يعرض عليهم الخصال الثلاثي، الإسلام أو الجزية أو القتال.

شعر سكان الأراضي القريبة من الدولة العثمانية الوليدة صدق إخلاص «عثمان» ونيته الجادة في نشر الإسلام، فتحركوا وانضموا للأمير «عثمان» في رحلته الجهادية المقدسة من هؤلاء: جماعة «غزيا روم» أي غزاة الروم وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم بنية الرباط وصد غارات الروم عن المسلمين وذلك منذ عهد الخليفة العباسي «المهدي بالله» أي أنهم كانوا أصحاب خبرة طويلة في قتال الروم ومن هؤلاء أيضاً جماعة «الأخيان» أي الأخوان وهي جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويقومون بخدمة المسافرين والجيوش المجاهدة وهي جماعة تتألف من كبار التجار وأصحاب رؤوس الأموال الذين سخروا أموالهم لنصرة الدين، وأيضاً جماعة «حاجيات روم» أي حجاج أرض الروم وهي جماعة معنية بالعلم الشرعي وتفقيه المسلمين بأمور الدين وكان لانضمام أمثال هذه الجماعات أثر قوي وزخم كبير

للحملة الجهادية.

ظهرت شجاعة الأمير «عثمان الأول» وحزمه في المائة يوم الأولى من قيام الدولة العثمانية حيث شن أمراء النصارى بالأناضول حملة صليبية على الدولة الوليدة سنة 700 هجرية فقاد «عثمان» الجيوش بنفسه وباشر القتال بسيفه ورمحه واستطاع بفضل الله عز وجل ثم قوة عزمه وشجاعته الفائقة في القتال أن يشتت هذه الحملة النادرة ثم شرع بعد ذلك في فتح الحصون الصليبية ففتح حصون «كتة» و «لفكة» و «أمة حصار» و «قوج حصار» وذلك سنة 707 هجرية ثم فتح حصون «كبوة» و «يكيجة» و «تكرربيكاري» سنة 712 هجرية ثم توج فتوحاته بفتح مدينة بورصة أو بورسة وذلك بعد مجاهدة ومحاصرة ومرابطة عدة سنوات قضاها الأمير «عثمان» في مصابرة عدوه حتى تم له الفتح سنة 717 هجرية، وأظهر فتح بورصة مدى صبر وثبات الأمير «عثمان» في جهاد أعداء الإسلام.

حاول أمراء النصارى في الأناضول إعادة الكرة مرة أخرى وتحالفوا هذه المرة مع «المغول» الذين كانت تربطهم بالنصارى علاقة وثيقة قائمة في الأساس على كره الإسلام ومحاربة المسلمين وإلا فهؤلاء كفار مشركون والآخرون وثنيون يعبدون الشمس والكواكب فجهز الأمير «عثمان الأول» جيشاً بقيادة ابنه الثاني «أورخان» وسيره لقتال المغول قبل تحالفهم مع النصارى فأوقع بهم هزيمة كبيرة شتت شملهم وصرفتهم عن فكرة الاتحاد مع البيزنطيين.

الشخصية الأسرة: ـ

كانت شخصية «عثمان» متزنة وخلابة وآثره في نفس الوقت فشده إيمانه بالله عز وجل وحماسته العالية في نشر الإسلام بأوروبا جعلت من شخصيته شدة الجاذبية للجميع، مسلمين وكافرين فلم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطنه على رحمته، وكان إذا وعد أوفى، فعندما اشترط أمير قلعة «أولوباد» البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني ألا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة ألتزم بذلك الأمير «عثمان» وكذلك كل من جاء بعده.

هذه الشخصية الجاذبة جعلت حتى أعداءه الكافرين ينبهرون بتلك الشخصية الباهرة فيدخلون في الإسلام، وأوضح مثال على ذلك القائد البيزنطي «إقرنيوس» الذي كان والياً على مدينة بورصة واستمات في الدفاع عنها ودخل في صراع طويل مع الأمير «عثمان» حتى سقطت المدينة في النهاية بعد خمس سنوات من الحصار وخلال تلك الفترة احتك «إقرنيوس» بالأمير «عثمان» وانبهر بخصاله وأخلاقه النبيلة وشخصيته الأسرة وفي النهاية أعلن «إقرنيوس» إسلامه عن صدق ويقين بل صار من كبار قادة الجيش العثماني الذي يحارب دولته الأصلية «بيزنطة» وما أشبه هذه القصة بقصة إسلام القائد الرومي «جريجوري بن تيودور» الذي تسميه المراجع العربية «جرجة» والذي أسلم على يد الصحابي العظيم «خالد بن الوليد» أثناء معركة «اليرموك» الخالدة ودخل القتال مع المسلمين ضد بني جنسه حتى استشهد آخر المعركة.

وهكذا أثر الشخصية الإيمانية وعملها في النفوس.

وصية رجل عظيم: ـ

ظل الأمير «عثمان» يعمل على تثبيت دعائم الدولة الإسلامية الوليدة في هذه البقعة الحاسة والملتهبة من العالم القويم، ويؤسس الدولة على القيم الإيمانية والأخلاقية المتينة؛ ليضمن لها بإذن الله الاستمرار والنهوض والبقاء.

ظل هذا الرجل الصالح ناصحاً لأمته ولدينه حتى وهو على فراش موته وقد حفظ لنا التاريخ وصية الأمير «عثمان» لابنه وخليفته من بعده «أورخان الأول» وهي تعتبر دستور الدولة العثمانية التي سارت عليه أيام قوتها وأوج مجدها إذ قال له: ـ

«يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً، يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز وأنعم على جنودك ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة، يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق فتحدث مرضات الله جل جلاله يا بني: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت وهذا يا ولدي ما أنت له أهل».

وهكذا يتضح لنا الأسس التي وضعها الأمير «عثمان» من بعده ومنها: ـ

1 ـ الإيمان العميق بالله عز وجل والعمل على إتباع أوامره وشريعته في شتى أمور الدولة.

2 ـ مشورة العلماء وأهل الفقه والشرع في مجريات وأمور الحكم والنزول على رأي الشورى.

3 ـ تحديد الهدف الذي قامت من أجله دولة بني عثمان وهو إعلاء كلمة الله ونشر دين الإسلام.

4 ـ تحديد الوسيلة لتحقيق هذا الهدف وهو الجهاد في سبيل الله.

وفي سنة 726 هجرية توفي الأمير العظيم بعدما أسس دولة صغيرة مساحتها ستة عشر ألف كيلو متر مربع من الأرض.

ولكنها على تقوى من الله ورضوان، وغاية جهادية جعلت هذه الدولة تتمدد في ظرف قرن واحد من الزمان لتشمل آسيا الصغرى والبلقان ومعظم أوروبا الشرقية، وتقهر الدولة البيزنطية وتفتح القسطنطينية وتعيد الخلافة الإسلامية من جديد وتنشر الإسلام في قلب أوروبا فجزاه الله عز وجل عن الإسلام كل خير.

المراجـــــع

1 ـ تاريخ الإمبراطورية العثمانية وديع شامخ
2 ـ القرون العثمانية د. ناهد إبراهيم دسوقي
3 ـ العثمانيون في التاريخ والحضارة د. محمد حرب
4 ـ تاريخ العثمانيين دكتور محمد سهيل طقوش
5 ـ تاريخ الدولة العثمانية دكتور أحمد فؤاد متولي
6 ـ تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار دكتور سيد محمد سيد
7 ـ تاريخ العثمانيون مترجم البروفسور / خليل إينالجيك
8 ـ الدولة العثمانية المجهولة مترجم / أحمد آق كوندوز
9 ـ التاريخ السياسي للدولة العثمانية مترجم / يلماز اوزتونا
10 ـ حضارة الدولة العثمانية دكتور عبد القادر أورجان

مواقع عديدة على شبكة الإنترنت

المحتويات

تقديم 5
الفصل الأول: الأمير الغازي «أرطغرل بك» والد عثمان أرطغرل 9
بطاقة تعارف لوالده 11
موجز سيرة «الأمير الغازي أرطغرل» 13
الفصل الثاني: سيرة عثمان أرطغرل 19
بطاقة تعارف سلطان السلاطين عثمان أرطغرل 21
أهم الصفات القيادية في عثمان أرطغرل 27
عثمان أرطغرل المجاهد العظيم 31
أشهر معارك سلطان السلاطين عثمان أرطغرل 37
معركة بافيوس 37
عهد عثمان أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية 41
حلم عثمان 43
تمدد الإمارة العثمانية 49
معركة بافيوس 55
فتح يني شهر وما حولها 59
فتح بورصة 61

وفاة عثمان أرطغرل 64
وصيته 65
إرث عثمان الأول 67
زوجاته وأولاده 68
سيف عثمان 69
صفاته وخصائصه 70
متاعه 70
شعره 72
مبادئه وخصاله 73
في الثقافة الشعبية 75
الفصل الثالث: الجوانب المشرقة في حياة عثمان بن أرطغرل 77
جوانب مشرقة في حياة عثمان أرطغرل 79
أهم الصفات القيادية في عثمان الأول: 79
الدستور الذي سار عليه العثمانيون 85
ومن واجبات الرعية تجاه الحكام 104
الفصل الرابع: أورخان غازي وريث العرش العثماني 113
ماذا بعد عثمان أرطغرل أورخان غازي 115
بداياته 117
فتح بورصة 119
تولية الإمارة 121
وصية والده 122

إنشاء جيش الإنكشارية 124
الفتوحات في الأناضول 129
معركة بيليكانون 130
حصار وفتح نيقية 132
حصار نيقوميدية وفتح ما بقي من بلاد الروم في الأناضول 133
ضم إمارة قره سي وفتح نيقوميدية 135
ترسيخ دعائم الإمارة العثمانية العتيدة 138
الفتوحات في أوروبا 139
العبور الأول الروملي 139
تدهور أوضاع الإمبراطورية البيزنطية 140
العبور الثاني نحو الروملي وفتح كاليبولي 142
سنواته الأخيرة ووفاته 147
تجديداته وتنظيماته الإدارية 148
الفصل الخامس: الخاتمة والخلاصة 159
الخاتمة والخلاصة عثمان الأول بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية 161
أصل الدولة العثمانية 162
الأمير عثمان 163
انهيار مملكة سلاجقة الروم 164
قيام الدولة العثمانية 166
عقبات في الطريق 166
المراجع 173